آداب النفوس

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي

© الكرمة للنشر، 2017

رقم الإيداع: 11524/2017

ISBN: 978-977-6467-69-9

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

معاملة الله

دلائل معرفة الله

رُوي عن بعض الحكماء أنه قال :

أوصيك ونفسي، ومن سمع كلامي، بتقوى الله الذي خلق العباد، وإليه المعاد، وبه السداد والرشاد .

فاتَّقِهِ يا أخي تقوى مَن قد عرف قُرب الله منه، وقدرته عليه .

وآمِنْ به إيمان مَن قد أقرَّ له بالوحدانية والفردانية والأزلية، لِما ظهر من مشاهدة ملكوته، وشواهد سلطانه، وكثرة الدلائل عليه، والآيات التي تدل على ربوبيته، ونفاذ مشيئته، وإحكام صنعته، وبيان قدرته على جميع خلقه، وحُسن تدبيره. ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين .

وثِقْ به يا أخي ثقةَ مَن قد حسُن ظنه به، وقلَّت تُهمته له، وصدَّق بوعده، ووثق بضمانه، وسكن قلبه عن الاضطراب إلى وعده، وعظم وعيده في قلبه .

واشكره يا أخي شكر مَن قد عرف فضله، وكثرت أياديه عنده، وبرُّه به .

وتعرَّفْ نِعَمه الظاهرة والباطنة، الخاصة منها والعامة، وأخلِصْ له إخلاص مَن قد عرف أنه لا يَقبل له عملًا إلا بعد تخليصه من الآفات، وإخلاصه لله لا شريك له، ولا يشرك في عمله أحدًا سواه .

واعلم يا أخي، أن إشراك المخلوقين في العمل: أن يتزيَّن لهم العبدُ في مواطن الامتحان، فيكذب في عمله، أو يرائي ليُكرَم، ويُعظَّم لجميل قوله، ومحاسن ما يظهر من عمله، وهو يعرف ذلك من نفسه، أو يجهله منها .

ولا يَسلم يا أخي من شره إلا مَن هرب مِن مواطنه، وعمل وهو لا يحب أن يطَّلع له مخلوق على عملٍ، وإنِ اطَّلع له مخلوق على عمل وهو لا يحب اطلاعه، فمن صدقه: ألا يحب أن يحمده ذلك المخلوق على ما اطلع عليه من

عمله. وإن حمده أحد وهو لا يحب حمده فلا يُسرُّ بحمده له على عمله، فإن سره فلا يسرنَّ لمعنى الدنيا بسبب من الأسباب .

ثم اصدُقْ يا أخي في قولك وفعلك، صِدق مَن قد عرف أن الله مطَّلع على دخيلة أمره، وسره وعلانيته، وما طوى عليه ضميره .

وتوكَّل عليه يا أخي توكُّل مَن قد وثق بوعده، واطمأن إلى ضمانه، ثقةً منه بوفائه، ورضا منه بقضائه، واستسلامًا منه لأمره، وإيمانًا بقدَره، ويقينًا صادقًا منه بجنته وناره .

وخَفْهُ يا أخي خوف من قد عرف سطوته، وشدة نقمته، وأليم عذابه، ومُثْلَته وآثاره ووقائعه لمن خالف أمره وعصاه .

وتعرَّفْ يا أخي: أنه لا تَمسُّكَ لأحد خذله، ولا صنيعة على أحد وفَّقه وسدده، وحاطه وحفظه، وأنه لا صبر لأحد على عقوبته ونكاله، وتغيُّر نِعَمه .

وارجُه يا أخي رجاء من قد صدَّق بوعده، وعايَن ثوابه .

واشكره يا أخي شُكْرَ من قد قَبِل منه محاسنه، وأصلح عمله، وحباه من مزيد أياديه، وأناله من مزيد كراماته ما لم يستأهله بعمله .

واستَحْيِه يا أخي حياء مَن قد تعرَّف كثرة تفضُّله، وجزيل مواهبه، وعرف من نفسه التقصير في شكره، وقلة الوفاء منه بعهده، والعجزَ عن القيام بأداء ما لزمه من حقه، ثم لا يتعرَّف من خالقه إلا جميل ستره، وعظيم العافية، وتتابُع النعم، ودوام الإحسان إليه، وعظيم الحلم والصفح عنه .

ثم اعلم يا أخي أن الله جلَّ ذكرُه قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة، وشرع لك شرائع، دلَّك عليها، وأمرك بها، ووعدك على حُسن أدائها جزيلَ الثواب، وأوعدك على تضييعها أليم العقاب، رحمةً لك، وحذَّرك نفسَه شفقةً منه عليك .

فقُم يا أخي بفرائضه، والزَمْ شرائعه، ووافِق سُنة نبيه صلى الله عليه وسلم، واتبِع آثار أصحاب نبيه، والزَم سيرتهم، وتأدبْ بآدابهم، واسلكْ طريقهم، واهتدِ بهداهم، وتوسلْ إلى الله بحبهم، وحبِّ مَن أحبهم، فهم الذين أنابوا إليه، وقصدوا قصده، واختارهم لصحبة نبيه، فجعلهم له أحبابًا وأخدانًا .

حقيقة التوسل بحب الصالحين

واعلم يا أخي: أن علامة حبك إياهم: لزومك محجَّتهم، مع استقامة قلبك، وصحة عملك، وصِدق لسانك، وحُسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك، كما كان القوم في هذه الأحوال. فهذا يحقق منك صدق دعواك لحبهم، والتمسك بسُنتهم .

فإذا صحَّت فيك ومنك هذه الخلال كصحتها منهم وفيهم، كنتَ صادقًا في حب القوم، وحسن الاتباع لهم .

وإن كنت مدعيًا لحبهم، وأنت مخالف لأفاعيلهم، عادل عن سبيل الاستقامة لطريق المَحجة التي كانوا عليها، فأنت مائل إلى موافقة هواك، عادل عن مسيرتهم، ولستَ بصادق في دعواك .

فلا تجمعنَّ على نفسك الخلاف لمحجتهم، والدعوى أنك على سبيلهم، فمتى فعلت ذلك صح منك جهل وكذب، وتعرضت للمقت من اللطيف الخبير .

ولكن إقرارًا واستغفارًا، فذلك أولى بمن كانت هذه صفته .

وليكن لك يا أخي في الحق نصيب، فإنه قد قيل: لَيأتين على الناس زمان يكون المُقر فيه بالحق ناجيًا .

سياسة النفس

فإذا أنت عرفت الحق، فأقررت به، ودلَّك الحقُّ على أن لله عليك مع الفرائض الظاهرة فرضًا باطنًا، هو : تصحيح السرائر، واستقامة الإرادة، وصدق النية، ومُفاتَشة الهمة، ونقاء الضمير من كل ما يكره الله، وعَقْد الندم على جميع ما مضى من النوائب بالقلب والجوارح على ما نهى الله عنه .

وهذا أمر جعله الله مهيمنًا على أعمال الجوارح. فما كان من أعمال العبد من عملٍ ظاهر قُوبِل به من الباطن، فما صح ووافق باطنه صلح، وقبل ظاهره، وما خالف وفسد باطنه، رُدَّت عليه أعمال ظاهره وإن كثرت، وخسر ظاهرها لفساد باطنها .

ويحقق ذلك كله قول الله تعالى : ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما العمل بالنِّية، وإنما لامرئ ما نوى ».

وقوله: «في ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر جسده» يريد عمله، «ألا وهي القلب ».

وقوله: «إن المَلَكَ ليُكثِّر أعمال العبد بعد وفاته عند الله تعالى، فيقول: عبدك لم أزل معه حتى توفيته»، ثم يذكر محاسن عمله، فيُكثرها ويطيبها، ويُحسن الثناء عليه. فيقول الله تعالى: «أنت كنت حفيظًا على عمل عبدي، وأنا كنت رقيبًا على قلبه، وإنَّ عمله الذي كثَّرتَه وطيَّبتَه لم يكن لي خالصًا، ولستُ أقبل من عبدي إلا ما كان لي خالصًا ».

فاعرف يا أخي نفسك، وتفقَّد أحوالها، وابحث عن عقد ضميرها، بعناية منك وشفقة منك عليها، مخافة تَلَفِها، فليس لك نفْس غيرها، فإن هلكت فهي الطامة الكبرى، والداهية العظمى .

فأحِدَّ النظر إليها يا أخي بعين نافذة البصر، حديدة النظر، حتى تعرف آفات عملها، وفساد ضميرها، وتعرِف ما يتحرك به لسانها، ثم خُذْ بعنان هواها، فاكْبَحْها بحكمة الخوف، وصدق الخلاف عليها، ورُدَّها بجميل الرفق إلى مراجعة الإخلاص في عملها، وتصحيح الإرادة في ضميرها، وصِدق المنطق في

لفظها، واستقامةِ النية في قلبها، وغضِّ البصر عما كره مولاها، مع ترك فضول النظر إلى ما قد أُبيح النظر إليه، مما يجلب على القلب اعتقاد حب الدنيا .

وخُذْها بالصمم عن استماع شيء مما كَرِه مولاها، من الهوى والخنا، وفي تناولها، وقبضها وبسطها، وفي فرحها وحزنها .

وخذها بتصحيح ما يصل إلى بطنها من غذائها، وما تستر به عورتها .

وخذها بجميع همِّها كلها .

وامنع فرجَها عن جميع ما كره مولاها .

وليكن مع ذلك منك تيقُّظ وإزالة للغفلات عن قلبك، عند كل حركة تكون منك وسكون، وعند الصمت والمنطق، والمدخل والمخرج، والمنشط والمكره، والحب والبغض، والضحك والبكاء .

فتعاهدها يا أخي في ذلك كله، فإن لها في كل نوع ذكرناه من ذلك كله سببًا لهواها، وسببًا لطاعتها، وسببًا لمعصيتها .

فإن غفلتَ ووافقت هواها، وغفلت عن مفاتشة هِمَمها، كان جميع ما ذكرتُ لك من ذلك كله معاصيَ منها. وإن أنت سقطت بالغفلة، ثم رجعت بالتيقظ إلى خلاف هواها، فكان معك الندم على غفلتك وسَقْطَتِكَ، رجع ذلك كله إحسانًا وطاعات لك .

فتفقدها يا أخي بالعناية المتحركة منك لها، مخافة تَلَفِها، فإنك تقطع عن إبليس طريق المعاصي، وتفتح على نفسك باب الخيرات، وما التوفيق إلا بالله العلي العظيم .

بين اللسان والقلب

خطر اللسان

اتَّهِم يا أخي نفسك على نفسك، أنشد من تهمتك أعدى عدو لك .

وخَفْ يا أخي من لسانك أشد من خوفك من السبع الضاري، القريب المتمكِّن من أخذك، فإن قتيل السبع من أهل الإيمان ثوابُه الجنة، وقتيل اللسان عقوبته النار، إلا أن يعفو الله .

فإياك يا أخي والغفلة عن اللسان، فإنه سبع ضارٍ، وأول فريسته صاحبه .

فأغلقْ باب الكلام من نفسك بغلق وثيق، ثم لا تفتحه إلا فيما لا بد لك منه، فإذا فتحته فاحذر، وخذ من الكلام حاجتك التي لا بد لك منها، وأغلق الباب .

وإياك والغفلة عن ذلك، والتمادي في الحديث، وأن يستمد بك الكلام فتُهلِك نفسك، فإنه يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ :

«وهل يَكُبُّ الناسَ على مَناخِرِهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟ ».

وسأله رجل فقال: ما أتقي؟ فقال: «هذا»، يعني: لسانك .

وقال له رجل: ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فقال: «هذا»، وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه .

وقال له آخر: ما النجاة؟ فقال: «أمسِكْ عليك لسانك، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتك ».

وقال صلى الله عليه وسلم: «من صمت نجا ».

وقال: «من سرَّهُ أن يَسلم فلْيَلْزَمِ الصمتَ ».

وورد عمر بن الخطاب على أبي بكر رضي الله عنهما، وهو آخذ بطرَف لسانه يُبَصْبِصُهُ، فقال : «ما تصنع؟». فقال: «هذا أوردني الموارد ».

وقال عبد الله بن مسعود: «ليس شيء أحق بطول سجنٍ من لسان ».

إلى أخبارٍ كثيرة في اللسان .

فإياك يا أخي والغفلة عنه، فإنه أعظم جوارحك عليك جنايةً، وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يوم القيامة من الشر ما أملاه عليك لسانُك، وأكثر ما تجده في صحيفتك من الخير ما اكتسبه قلبك .

فضل عمل القلب على عمل اللسان

وذلك: أن اكتساب قلوب الحكماء وأهل البصائر للخير أعمال خفية، تخفى على إبليس، وعلى الحَفَظة، فهي أعمال نقية من الفساد، زاكية، قد حصلت مع خفة مؤنة على أهلها، جزيلة الثواب، مخلصات من عوارض العدو، ومن هوى النفس .

وذلك لأنها أعمال مستورة، عن أعين العباد خاملة، لأن العبد يصل إليها قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، فأولئك هم أولو الألباب، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾، وأكثر ذكرهم التفكر، قال تعالى : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

فهم أهل الإخمال من المؤمنين الذين عبدوا الله عبادةً لم تظهر منهم .

سياسة القلب

تصفية القلب عن الحرص على الدنيا

وتعاهَدْ يا أخي قلبك بأسباب الآخرة، وعرِّضْهُ لذلك، وصُنْهُ من أسباب الدنيا، ومن ذِكرٍ يَجرُّ إلى الحرص والرغبة .

ولا تأذن لقلبك في استصحاب ما يعسُر طلبه، وينطفئ نور القلب من أجله، وكُنْ في تأليف ما بينه وبين محمود العواقب حريصًا، وخوِّف نفسك عقوبة ما في يديها من الدنيا، وقلة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر .

واستكثِر ما في يديك، لِما تعلم من ضعف شكرك، فتشتغل النفس بما في يديها عن الفِكر في أمر الدنيا، والمحبة للزيادة منها .

فإذا أجممتها من ذكر الزيادة من الدنيا، وحملتها على درجة الخوف مما في يديها، قَنَعَتْ ورَضِيَتْ، وعفَّتْ عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة، ورجعتْ إلى الآخرة، بالحرص عليها، والرغبة فيها، فإن النفس مبنية على أساس الطمع .

أخطار الطمع على القلب

ومَخرَج الحرص والرغبة من الطمع وبناء الأنفس قائم على قواعد الطمع، أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من الدنيا، وأما الطمع في الآخرة فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة، بالحرص عليها والرغبة فيها .

قيل لحكيم: فما آلة الطمع، وجِماع آفاته؟

قال: الشَّرَهُ والحرص، وهَيَجان الرغبة، فعلى أيها أوقعت النفس طمعها أحضرتْ أداتها، وجمعت آلتها، وجَدَّت في طلبها .

فإذا قهرت صاحبها على موافقة هواها استعبدته، فأذهلته وأذلته، وأدهشته وأتعبته، وطيَّشَتْ عقله، ودنَّست عِرضه، وأخلقت مروءته، وفتَنَتْهُ عن دينه، وإن كان عالِمًا لبيبًا عاقلًا كَيِّسًا فطينًا فصيحًا حكيمًا فقيهًا لوَّثته، وأسقطته، وفضحته، فاحتَمَل لها ذلك كله، وهو الأريب العالِم الأديب، فصيَّرَته بعد العلم جاهلًا سفيهًا، أحمقَ خفيفًا .

وذلك: أنها سقَتْهُ من موافقة هواها كأسًا سُمًّا صرفًا، فاستمالته، فمال بعلمه وعقله وفَهمه، ونفاذ حكمته وبصره، فأجراه مجرى هوى نفسه، فعجَّلَت له الفضيحة في عاجل الدنيا، عند حكمائها وعقلائها، وأسقطته من نعيم الله، وأعين عباده من أهل البصائر، وأخَّرت له آجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا، وفي عرَصات القيامة .

قهر النفس على طلب الآخرة

فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا، وغلب بعقله هواها، رجعت بطمعها إلى أسباب الآخرة لا محالة، لأنها بُنيت على الطمع .

فإذا تجردتْ من أسباب الدنيا، وأقبلت على نفسها بالإياس من المخلوقين، رجعت برغبتها وطمعها إلى أسباب الآخرة، فجَدَّتْ في طلبها واجتهدت، وعزفت عن الدنيا، وباينت الهوى، وخالفت العدو، وتبعت العلم، وكانت مطيَّةً للعقل، صابرة على مُرِّ ما يدل عليه الحق، فنَجَت وأنجَتْ .

الخوف والحزن

وسيلة تحصيل الخوف والحزن

وتعاهَدْ يا أخي قلبك عند هِمَمِه، وألزِمْه الفكرةَ في أمر المعاد، فلا تفارق قلبك، وتَوهَّمْ بقلبك هول المَطْلَع عند مفارقة الدنيا، وتَرْك ما قد بذل أهلُها في مُهَج نفوسهم، وتدنيس أعراضهم، وإخلاق مروءاتهم، وانتقاص أديانهم، ثم تركوا ذلك كله، وقَدِموا على الله فرادى آحاد، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر، وسؤال منكَر ونكير، وأهوال القيامة، والوقوف بين يدي الله، والمساءلة عن جميع ما كان منهم من قول أو فعل، من مثل مثاقيل الذَّرِّ، وموازين الخردل .

وسؤاله عن الشباب فيمَ أبلى شبابه؟ وعن العمر فيمَ أفنى عمره؟ وعن المال من أين اكتسب، وعمن منع، وفيم أنفق؟ وعن العلم ماذا عمل فيه؟ وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها والتي كذبوا فيها .

فإنك يا أخي إن شَغلت قلبك بذلك، وأسكنته إياه، وكان فيك شيء من صحة تركيب العقل، فإنه سيَكِلُّ منك لسانك، ولا يعدمك الخوف اللازم، مع الحزن الدائم، والشغل المحيط بقلبك .

إبليس يهوى القلوب الخَرِبة

وإن إبليس إنما يُسَوَّرُ عليك في الآثام من وسوسة نفسك، وخراب قلبك .

وخرابُه إنما يكون إذا كان فارغًا من الخوف اللازم، والحزن الدائم، فحينئذٍ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا، والجَمْع لها، مخافة فَقْرِها، مع لزوم طول الأمل لقلبك، وإعراضه عن الله تعالى، وانقطاع مواد عظَمة الله منه، وفراغه من الهيبة والحياء منه .

فإذا وجد القلب عامرًا خَنَس، ونفر منه، ولم يجد فيه مساغًا، ولا من جوانبه مدخلًا، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفِكر، فهو منير مضيء .

يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس، فيرميه بالإنكار لما يدعو إليه، ويعتصم بما أيَّده الله به من نور قلبه، فيَدْحَره عنه، فولَّى الخبيث إلى قلبٍ قد فقدَ الخوف، فخرب وأظلم، فلا نور فيه .

فلا شيء أثقل على الخبيث من النور، فإذا وجده خنس ونفر منه، فلا يقدر عليه إلا من قِبَل الغفلة من العبد .

ونور القلب إنما هو من يتَّعظه وحياته، فإذا غفل مات وأظلم، وطُفئ نوره، فيلتبس على العبد ما يدخله عليه العدو، أو يكدر عليه، فاختلس إبليس من العبد، واستدام القلب بالغفلة، فتَسوَّرَ عليه بالآثام، فإذا أصر على الإقامة عليها، ورضي بها علاه الرَّين فأظلمه، واستقر إبليس فيه، ثم سلك به سبيل الآثام، إلى أن يوصله ويوقعه في الكبائر .

ولا شيء أعجبُ إلى إبليس من ظلمة القلب وسواده، وانطفاء نوره، وتراكب الرَّين عليه، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء، وإنما مأواه الظلمة، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض .

ولقد بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكره أن يدخل البيت المظلم حتى يضاء له فيه بمصباح .

مراقبة الله تعالى

ما يعين على المراقبة

يُروى عن بعض الحكماء أنه قال: إن من أشرف المقامات وأفضلها: المراقبة لله .

ومن أحسن المراقبة: أن يكون العبد مراقِبًا بالشكر على النعم، والاعتراف بالإساءة، والتعرض للعفو عن الإساءة، فيكون قلبه لازمًا لهذا المقام في كل أعماله، فمتى ما غفل، رده إلى هذا بإذن الله .

ومما يعين على هذا: ترك الذنوب، والتفرغ من الأشغال، والعناية بالمراجعة .

ومن أعمال القلب التي يزكو بها، ولا يُستغنى عنها: الإخلاص، والثقة، والشكر، والتواضع، والاستسلام، والنصيحة، والحب في الله تعالى، والبغض فيه .

وقال: أقل النصح: الذي يُخْرجك تركه، ولا يسَعُك إلا العمل به، فمتى قصرت عنه كنت مُصِرًّا على معصية الله تعالى في ترك النصيحة لعباده. فأقل ذلك: ألا تحبَّ لأحد من الناس شيئًا مما يكره الله عز وجل، ولا تكره لهم ما أحب الله عز وجل .

فهذه الحال التي وصفنا واجبة على الخَلق، لا يسع تركها طرفة عين، بضمير ولا بفعل جوارح .

وحال أخرى فوق هذه، وهي فضيلة للعبد: أن يكره لهم ما كره الله، وأن يحب لهم ما أحب الله تعالى .

قال: وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك، فقال له: أوصني. فقال: «راقِبِ الله». فقال الرجل : وما مراقبة الله؟ فقال: «أن تَستحيي من الله ».

المراقبة والمناجاة من اليقين

قال: فالمناجاة والمراقبة من حيث تضع قلبك، وهو: أن تضعه دون العرش، فتناجي مِنْ هناك .

وفي رد القلب إلى المراقبة مراجعتان :

أولاهما: مراقبة النظر، مع تذكُّرِ العلم، قال تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وقال تعالى:﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ .

ثم تذكَّرِ العظمة لوجود الحلاوة .

والقول الآخر: يُروى أن الله سبحانه أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: «يا إبراهيمُ، أوَتدري لِمَ اتخذتُك خليلًا؟ قال: لا يا رب. قال: لطول قيامك بين يدي». قال: فقيل: إنما كان قيامه بالقلب، وليس بالصلاة .

وهذا يوافق القرآن، قال تعالى:﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ .

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «اعبد الله كأنك تراه ».

وحديث حارثة وقوله: «كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ».

من آداب المراقبة

وقال: أعلى الأعمال في الدرجات : أن تعبد الله على السرور بمولاك، ثم على التعظيم له، ثم على الشكر، ثم على الخوف، وآخر الأعمال التي تكون بالصبر .

والصبر على وجوهٍ: تصبُّر، وصبر جميل. ثم تخرج إلى الخوف، والشكر، ثم إلى التعظيم، ثم السرور .

ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في أيدي الناس عنده قليلًا، وليكن القليل عنده من دنياه كثيرًا، وليكن العظيم منهم إليه من الأذى صغيرًا، وليكن الصغير منه إليهم عنده عظيمًا .

وقال: إذا دعتك نفسك إلى ما تنقطع به عند حظك، فاجعل بينك وبينها حَكمًا من الحياء من الله تعالى .

وقال: إن الأكياس إذا دعتهم النفوس إلى أن تقطعهم بخدائعها عن سبيل نجاتهم، حاكموها إلى الحياء من الله تعالى، فأذلَّها حُكْم الحياء .

وقال: مَخْرَجُ الاغترار من حُسن ظن القلب، ومخرج حسن ظن القلب من القيام لله على ما يكره، ثم من كَذِب النفس .

وقال: من النصح أن تحب أن يكون الناس كلهم خيرًا منك .

وقال: ذُكِرَ عند ابن المبارك عابد تَعبد بلا فقه، فقال: ليت بيني وبينه بحرًا .

وقال: مَنِ انقطع إلى الله لم يصبر على الناس، ومن انقطع إلى غير الله لم يصبر عنَ الناس .

وقال: من قرأ القرآن ما له ولكلام الناس .

وقال: إنما هي أيام قلائل، فما على الإنسان لو وهب نفسه لله؟

وقال: التواضع لله ذل القلب .

وقال: أول النعم معرفة العلم الذي به تؤدى فرائض الله، ثم الصحة، والغنى، ثم العقل .

وقال: ليس للعبد أن يرد على مولاه شيئًا من أحكامه، وعليه أن يرضى بما ورد عليه من حُكم مولاه، ويجب عليه أن يصبر. فللعبد حالان: حال يوافق منه رضا على ما يحب، وحال يوافق منه صبرًا على ما يكره .

العدل والفضل

شرائع العدل وشرائع الفضل

بسم الله الرحمن الرحيم.. يُروى عن بعض الحكماء أنه قال: طريق الآخرة واحد، والناس فيه صنفان: فصنف أهل العدل، وصنف أهل الفضل .

والعدل عدلان: عدل ظاهر فيما بينك وبين الناس، وعدل باطن فيما بينك وبين الله .

وطريق العدل طريق الاستقامة، وطريق الفضل طريق طلب الزيادة .

والذي على الناس لزوم العمل به: طريق الاستقامة، وليس عليهم لزوم طريق الفضل .

والصبر والورع مع العدل، وهما واجبان. والزهد والرضا مع الفضل، وليسا بواجبين. والإنصاف مع العدل، والإحسان مع الفضل .

ومن شغَله العدل عن الفضل فمعذور، ومن شغله الفضل عن العدل فهو مخدوع، متَّبع لهوى نفسه. وعلى الإنسان معرفة العدل، وليس عليه معرفة الفضل إلا تبرُّعًا .

وهكذا كل عمل لا يجب على العبد فِعْلُه، لا يجب عليه علمه .

صفات أهل العدل

ولا يكون العبد من أهل العدل إلا بثلاث خصال : بالعلم حتى يعلم ما له مما عليه، وبالفعل، وبالصبر .

فمفتاح العدل، وأولاه بالعبد، وأوجبه عليه: أن يعرف قدر نفسه، فلا يكون لها عنده قدرٌ فوق منزلتها، وأن تشبه سريرته علانيته .

وأحزَمُ الناس فيه، وأقربهم منه مأخذًا: المُراجِع لنفسه في كل خطرة تهواها نفسُه، أو تكرهها، فينظر في ذلك، أن لو اطلع الناس على حالته هذه، فاستحيا أو كرهها، تحوَّل من تلك الحالة إلى حالة لا يُستَحيا منها، فإن الذي لا يُستحيا منه ضد الذي يُستحيا منه .

فإذا تحول واستمر فلينظر، فإن اشتهت نفسُه أن يطلع الناس عليه، تحوَّل منه إلى ما لا تشتهيه نفسه، فإن الذي تشتهيه ضده، فيكون أبدًا في ضد ما تشتهيه نفسه .

أبعد الناس من العدل

وأبعد الناس من العدل: أشدهم غفلة عن هذا، وأقلهم محاسبة لنفسه، وأبعد الناس من العدل وأطولهم غفلة عن هذا: أشدهم تهاونًا به .

ولو عقلت من الذي تراقب، ثم تقطَّعت أعضاؤك قطعًا، وانشقَّ قلبك، أو سِحْتَ في الأرض، لكنتَ بذلك محموقًا .

فلما لم تعقِلْ لم تجد مسَّ الحياة والخوف في مراقبة الله تعالى، ومطالعته على ضميرك، وعلمه بما تجلبه حواسُّك على قلبك، وقدرته المحيطة بك، ثم أعرضْتَ بعد ذلك كالمتهاوِن به إلى مراقبة مَن لا يطلع على سِرك، ولا علم له بما في ضميرك، فقلت: لو اطلع الناس على ما في قلبي لَقَلَوْني ومقتوني، فمَسَّك الحياء والخوف منهم، حذرًا من نقصان جاهك، وسقوط منزلتك عندهم، فكنت لهم مراقِبًا، ومنهم خائفًا، ومن مقتهم مشفِقًا، إذا لم تجد مقت الله لك، وسقوط منزلتك وجاهك عنده.. ومقتُ الله أكبر .

ثم إذا عملت شيئًا من الطاعات التي تقرِّب إلى الله زُلفى، فإن هم اطلعوا عليها عقدت بقلبك حب حَمْدِهم على ذلك، وأحببت اتخاذ المنزلة عندهم بذلك .

وإن كان شيئًا يتقرب به إلى الله من طاعة بعقد ضمير، أو اكتساب جوارح، فإن كان ذلك سرًّا أحببت أن يطلعوا عليه ليحمدوك، ويقوم به جاهك .

فلم تقنع باطلاع الله عز وجل، ولا بثوابه في عمل السر ولا في عمل العلانية، وأنت قانع بذلك، راضٍ به، غافل متمادٍ، معتزٌّ مخدوع، وكانت هذه الحالة عندك أحسن أحوالك، وأحزمَ أمورك .

ولو استغنيت بالله وحده، وباطلاعه عليك، وبجزيل ثوابه لأهل طاعته، ومحبته لهم، وتوفيقه لهم، وتسديده إياهم، وراقبتَه، لأغناك ذلك عمن لا يملك لك ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعًا .

وقد رضي منك بذلك.. وليتك تضبطه .

فأولى الفضائل بك، وأنفعها لك، أن تكون نفسك عندك دون قدرها، وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتك، وأن تبذل للناس حقوقهم، ولا تأخذ منهم حقك،

وتتجاوز عما يكون منهم، وتنصفهم من نفسك، ولا تطلب الإنصاف منهم .

وإنما هو التطهير ثم العمل.. والتطهير أولى بنا من العمل .

التطهير والعمل

أهمية التطهر من الآفات قبل العمل

والتطهير هو: الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يُبنى عليه الخير.. وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس، ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء .

ومن لم يتطهر قبل العمل، فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير، فترك الشر أولى بالعبد، ثم يطلب الخير بعد .

والنفس تجزع من التطهير، وتفِرُّ إلى أعمال الطاعات، لثِقَل التطهر عليها، وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة .

فإذا كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات بعد خفته عليها لمكان الطهارة، فالحاجة إلى معرفة الأسباب التي يُطلب منها الخير، وتوصل إلى الله شديدةٌ .

فمن كانت له عناية بنفسه، وخاف عليها التلف، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفِطَن، وغائص الفهم، حتى يصل إليها. فإذا وصل إليها تمسَّك بها، وعمل عليها، لأن المعرفة لآفات العمل تكون قبل العمل، ومعرفة الطريق قبل سلوكه، وحاجة العبد إلى معرفة نفسه وهواها، وعدوه، ومعرفة الشر أشد إن كان كيِّسًا، وهو إلى ذلك أفقر إن كان فطِنًا مَعنيًّا بنفسه .

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد، والشر كله لازمٌ للعبد تركُه، ومن ترك الشر وقع في الخير، وليس كل من عمل بالخير كان من أهله .

ومعرفة العبد للشر فيها علم الخير والشر، وليس في معرفة الخير العلمان جميعًا، لأن كل من ميَّز الخير من الشر فعزَلَه واعتزله، فكل ما بقي بعد ذلك فهو خير كله. وقد يمكن أن يعلم الخير ولا يحسن أن يميز ما فيه من الشر من الآفات التي تفسده وتبطله، لأن الخير مشوب ممازج بالشر، والشر شر كله .

الشيطان يضل الناس بالخير وبالشر

وقد أضل العدوُّ الخبيث عن الله كثيرًا من الناس بالخير، وأضل كثيرًا منهم بالشر، وإنما أضل مَن أضل منهم بالخير لقلة معرفتهم بما يمازج الخير من الشر . فجهلوا معرفة ذلك، وأوهمتهم أنفسهم أنهم على خير وهدى، وطريق محبة، وسبيل استقامة، وهم ضالون عن الله، عادلون عن طريق محبته، وسبيل الاستقامة إليه .

وإنما ذلك من كثرة الآفات التي تلحق الأعمال، وقلة علم العمال بها. فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الطلب على قدر المعرفة

ما أغفل الناس عن أنفسهم، وعن أهوائهم، وعن عدوهم، فنعوذ بالله من الغفلة والسهو والنسيان الذي يُردي، ويُفسد الأعمال .

والحَرِيُّ: أن تارك الشر يكون تركُه له على قدر ما يعرف من ضرره، وهو قائم بفرض تقرب إقامته من الله زلفى . وطالب الخير يكون طلبُه على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته، ومن أن العلم شيء، والعمل شيء، والمنفعة شيء، وربما كان علم ولم يكن صاحبه به عاملًا، وربما كان علم وعمل ولم تكن منفعة، وربما كان علم وعمل ومنفعة، ثم يكون بعد ذلك إبطال وإحباط. وربما علم العبد وعمل وانتفع وسلم وتمَّ .

الخصال التي يُطلب منها الخير

وطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال، سوى ما يحتاج فيه إلى علم حدود الأعمال وأحكامها، وأدائها إلى الله تعالى خالصة مخلَّصة، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض وسَنَّ، في الأوقات التي أمر وفرض .

وصاحب الخير العامل به لا يستغني عن: الصدق، والصواب، والشكر، والرجاء، والخوف .

الصواب

أما الصواب فالسُّنة، والسنة ليست بكثرة الصلاة تُدرك، ولا بكثرة الصيام والصدقة، ولا بالعقل والفهم، ولا بغرائب الحكمة، ولا بالبلاغ والموعظة، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والأئمة الراشدين من بعده .

وليس شيء أشد تهمة ولا أكثر ضررًا على السُّنة من العقل، فمتى أراد العبد أن يسلك سبيل السُّنة بالعقل والفهم خالفها، وأخذ في غير طريقها .

الصدق

وأما الصدق ففي أربعة أشياء :

تعمل العمل ثم لا تريد على ذلك جزاء ولا شكورًا إلا من الله تعالى، ولا تبطله بالمَنِّ والأذى، ومنه صدق اللسان في الحديث. وقد يصدق في حاله بلسانه، وهو عاصٍ لله تعالى في صدقه، وهو: المغتاب والنمَّام .

الشكر

وأما الشكر فمعرفة البلوى. فإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله لا غيره، وإنما هي بلوى يَختبر بها عبده، شكَر أم كفَر، وكل سوءٍ صُرف عن العبد فالله تعالى صرَفه، ليشكره عبدُه أو يكفره. فهذا من الشكر .

فإذا عرف العبد هذا أنه من الله، وعَدَّه من نعَمه عليه، ولم يُدخِل فيه أحدًا : نفسه ولا غيرها، فقد شكره، فالشكر متفاوت، والناس فيه متباينون متصاعدون، وهذا أدناه، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد، وليس له حدٌّ .

ومنه أيضًا وهو يشبه ما وصفنا، إلا أنه أصل الشكر، أن يعرف العبد: أن ما به من نعمة فمن الله بقلبه، علم اليقين، لا تخالطه الشكوك. فإذا عرف بقلبه ذلك، ذكره بلسانه، فحمده عليه، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعِم على شيء مما يكره المنعِم .

وأعلى من ذلك من الشكر: أن تعدَّ كل بلاء نزل بك نعمة، لأن الله من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزل بك .

والناس يحتاجون عند ذلك إلى الصبر، وهو قائم بالشكر .

الرجاء

وأما الرجاء فهو: أن ترجو قبول الأعمال، وجزيل الثواب عليها، وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك، أو يكون قد دخلَتْه آفة أفسدته عليك .

والراجون ثلاثة :

رجل عمل حسنة وهو صادق في عملها، مخلص فيها، يريد الله بها، ويطلب ثوابه، فهو يرجو قبولها وثوابها، ومعه الإشفاق فيها .

ورجل عمل سيئة ثم تاب منها إلى الله، فهو يرجو قبول توبته وثوابها، ويرجو العفو عنها، والمغفرة لها، ومعه الإشفاق ألا يعاقبه عليها .

وأما الثالث فهو : الرجل يتمادى في الذنوب، وفيما لا يحبه لنفسه، ولا يحب أن يلقى الله به، ويرجو المغفرة من غير توبة، وهو مع ذلك غير تائب منها، ولا مقلع عنها، وهو مع ذلك يرجو .

فهذا يقال له: مفتر، متعلق بالرجاء الكاذب، والأماني الكاذبة، والطمع الكاذب .

والقيام على هذا يقطع مواد عظمة الله من قلب العبد، فيدوم إعراضه عنه، ويأنس بجانب مكر الله، ويأمن تعجيل العقوبة، وهذا هو المفتر المخدوع المستدرَج .

وأما أمثالنا من الناس فينبغي أن يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء، لأن الرجاء الصادق إنما يكون على قدر العمل بالطاعات .

الخوف

والخوف على قدْر الذنوب، فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل، لكان المحسِن والمسيء في الرجاء سواء. وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾، وقال : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومعنى الحديث الذي جاء: «لو وُزِن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلَا» ينبغي أن يكون خاصًّا بين أهله، وهو قبل الحديث الآخر: «المؤمن كذي قلبين، قلب يرجو به، وقلب يخاف به». فإنما هو إذا أحسن رجا، وإذا أساء خاف، مع التوبة والندم والإقلاع .

فأما من عرف نفسه بكثرة الإساءة، فينبغي أن يكون خوفه على قدر ذلك، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الإحسان، لأن الرجاء على قدر الطلب، والخوف على قدر الهرب .

البلوى والاختبار

القرآن يقرر الابتلاء بالدنيا كلها

واعلم وأيقن أن الدنيا كلها: كثيرها وقليلها، حلوها ومرها، أولها وآخرها، وكل شيء من أمرها، بلوى من الله تعالى للعبد واختبار .

وبلواها وإن كثرت وتشعبت واختلفت فهو مجموع كله في خُلَّتين: في الشكر، والصبر. فإما أن يشكر على نعمة، أو يصبر على مصيبة .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

وقال : ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ .

وقال : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ .

وقال : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ .

وقال : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

وقال:﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

وأكثر من ذلك في كتاب الله تعالى .

وإنما كانت بلوى آدم عليه السلام أقل من آية في كتاب الله : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، وهو كله لك بلوى .

أكثر الفتنة في الناس

وإن أكثر ما بُلِيَ به العبد من أهل الدنيا: الناس.. وأفتنُ الناس لك وأكثرهم لشغلك: إنما هو بمعارفك منهم.. وأشغَل معارفك لك، وأكثرهم عليك فتنة: من أنت بين ظهرانيهم، ينظرون إليك، وتنظر إليهم، ويكلمونك وتكلمهم .

فإنك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه، ولم تسمع به، كأنك لم تُبْتَلَ بهم، وكأنهم لم يُبْتَلَوْا بك، وكأنهم لم يكونوا من هذه الدنيا التي أنت فيها .

فارجِعْ في صبرك إلى الله، واستعن به، وانقطع إليه، واستأنس بذِكْره، وأقلِلْ من الخُلَطاء ما استطعت، بل اتركِ القليل أيضًا تَسلم، لقول الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ . فاهرب من الفتنة .

فرجع صبرك إلى معارفك، ومن أنت بين ظهرانيهم، فنظرك إليهم فتنة، ونظرهم إليك فتنة، وكلامك معهم فتنة، وكلامهم معك فتنة، وجفاؤك لهم فتنة، وجفاؤهم لك فتنة، وكرامتهم لك فتنة، وكرامتك لهم فتنة لك .

واعتبر من ذلك بموضع تمرُّ فيه، فيه معارفك، وموضع تمرُّ فيه، ليس فيه أحد يعرفك .

وهكذا شهوات المطعم والملبَس، وشهوات العين، ما يحل النظر إليه، وما لا يحل النظر إليه، مما كان من ذلك في غير البلدة التي أنت فيها، فأنت منها سليم، وفتنتها مصروفة عنك إن شاء الله تعالى، لأن مؤنتها ساقطة.. وهكذا أنت في جميع أمورك .

الابتلاء في العمل

وعملك الذي تعمل، إنما هو فتنة، أنت فيه تريد أن تُوقَى أعين الناس، وأكثرهم من يعرفك بالخير، فأعمالك لك فتنة .

إن حججت فكنت خاليًا ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان أسلم لك، وإلا فهو فتنة، فانظر كيف تسلم منها .

وإن خرجت من بلدة أنت فيها معروف بالخير، فخرجت منها وهم لا يعلمون أين تريد، فهو أسلم لك، وإن علموا فهو فتنة، فانظر كيف تسلم منها .

وكذلك الغزو، وبلوى أهل الغزو، وما ينوبهم في مغازيهم من الفتنة والبلية أعظم من بلية غيرهم، من الذين يعملون أعمال البر. وهم قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية، فإذا دخلوها جاءت الفتنة، من التحاسد بعضهم لبعض، وطمعهم فيما يرجون من السهام، وطمعهم في الحملان، وما يُجْعَلُ للناس في سبيل الغزو .

ولقد سمعت رجلًا من المذكورين من أهل الغزو، وممن له غناء عند لقاء العدو، واسم عظيم في المطوعة، ويقول : الخيل قد خرجت، ولم يُقْضَ لي الخروج فيها، أما السلامة فأحب أن يسلموا، ولكني أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم .

ولقد رأيت من يغار على ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يُعْطَ هو وأُعطي غيره، كما يغار الرجل على بعض حُرمه. ولقد رأيت من غزا ولم يغنم، ودَّ أن لم يكن غزا .

ولا يؤمَن يا أخي على كل من دخل في عمل من أعمال الدنيا والآخرة جميعًا إذا لحقتهم في عملهم الآفات التي تفسد الأعمال، أن يُدخِل عليهم الشيطان فيها من العيوب والفتن مثل هذا وأكثر من هذا .

فليحذر الرجل على كل عمل يعمله من أعمال الدنيا والآخرة، وليراقب الله فيه، ويعامله بضمير خالص، ويحذر اطلاع الله على فساد ضميره، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله، فإن كناس الحشوس أكرم من هذا الصائم، وهذا

المصلي، وهذا القائم، وهذا الغازي الذي يكره أن ينال المسلمون من غنائم الروم، والجالس في بيته ببغداد يحب أن يغنموا منهم .

فاحذر رحمك الله من قَرُبَ منك وقَرُبْتَ منه، فإن الذين بَعدوا منك وبَعُدْتَ منهم، سلموا منك وسلمت منهم .

يود أقوام غدًا أنهم لم يكونوا سمعوا بآذانهم كثيرًا من أعمالهم التي هي في رأي العين يُرجى لصاحبها عليها الثواب الجزيل، والدرجات الرفيعة، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيرًا من حسناتهم، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسَبون .

كيف يهلك العبد بأعمال البر

يقال: إنها أعمال من البر كانوا يَرَون أنها مُنَجِّيَتُهُم، فكانت هي مُهْلِكَتُهم، لما مازجها من الرياء وحب المحمدة من المخلوقين، واتخاذ المنازل بالطاعات، وإقامة الجاه، وحب القَدْر، والميل إلى ثواب المخلوقين .

فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا، فافتضحوا، وفضيحة ما هناك باقية، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد .

فليس اسمُ الأعمال يراد، ولا تزيينُ ظاهرها، ولكن تقوى الله، وما يقرِّب إليه زلفى، فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بُعْد المَشرقين .

قال الله تعالى حكاية عن إبليس العدو الخبيث:﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ . فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلا هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه .

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يُؤتى من قِبَل البر، وقلة العناية بتصفية الأعمال، وما قد استَحْلَتِ النفس من حب المحمدة من المخلوقين .

وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام، إلا أن علامة الفتنة في الناس جميعًا مختلفة. وأكثر الناس إنما يعرفون من قد فُتِنَ بالآثام، ولا يعرفون من فُتن بالبر، إلا القليل من الناس، من أهل النور والفطن والفراسة والتوسم والكياسة .

وذلك: أن الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها، والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها .

ومن الناس من يعلم فِتَنَ الأعمال ومبطلاتها، ثم يغلبه الهوى، ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل .

واعلم أن الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال، ومعه العناية بنفسه وعمله، ومعه التيقظ وإزالة الغفلة، وهو مع ذلك مشفِق خائف من الآفات ما يكاد يسلم إلا من عصم الله تعالى، فكيف الذي يجهل ويغفل، ويغلبه الهوى، ويحب دخول الآفة؟

شمول الفتنة وخطرها

وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة: بالبر والإثم جميعًا افتتانًا، فاحذر فتنة البر والإثم جميعًا، لئلا ينزل بك ما نزل بغيرك في الترك والطلب .

فلتكن همَّتك في النظر في مرآة الفكر كالهِمَّة بالعمل، وأكثِر من ذلك، فإنه ليس شهوات الذنوب والسيئات، وشهوات المطاعم والمشارب والملابس والبناء والمراكب والمناكح والذهب والفضة بأغلب على أصحابها من شهوات الجاه وحب الرئاسة، وإقامة القدْر، واتخاذ المنزلة، وقبول الأمر والنهي، وقضاء الحوائج، وحب العدالة عند الجيران والأصحاب والإخوان، والمِدْحة على أصحاب البر في حسناتهم .

وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنب، فيترك الذنوب، ويصير إلى أعمال البر، فيضعف عند تصفيتها، وتغلبه شهوة ما فيها، فيعمل حسنات كثيرة بقوة واقتدار عليها، وظمأ شديد وسهر، فلا يقدر على أن يغلب شهوته على تصفيتها، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما قد نزل بنا، وما أعظم خطرنا، وما أغفلنا عن عظيم الخطر !

احذر خداع الشيطان وهوى نفسك

ثم اعلم أني لست أزهِّدك في طلب أعمال البر، لأن كل عمل لا تعمله اليوم لا تجد ثوابه غدًا، ولكني أحذِّرك خداع الشيطان، وهوى نفسك الأمَّارة بالسوء .

وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.. وقد قال تعالى :

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

وقال:﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

وقال:﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ .

وقال : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

وقال : ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ .

وقال : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ .

وقال:﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

وقال:﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وقال:﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ .

وقال : ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ .

مع أشياء كثيرة في ذِكْر عداوة إبليس، وذم النفس والهوى .

مراجعة النفس

كيف يعرف الإنسان سلامته من الآفات

قلت: إني أرى من الناس أشياء يُعاب مثلها، وأحب أن أسلَمَ من التعبير والازدراء والعيب، فلا أدري أَسَلِمَتْ منه نفسي أم لا .

فقال: إن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبْلَه، وعند معرفة عيب غيره جِهْبيذ، فيحتقر عيب أهل كل صناعة، وأهل كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة، ويحتقر عيب مَن هو في مثل مرتبته، ويستعظم ذلك مِن كل مَن رآه منه، فإذا أتى على عيب نفسه جازه إلى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره .

وهو يطلب العذر لنفسه، ولا يطلبه لغيره، فهو في طلب عذرها جِهبيذ، وفي طلب عذر غيرها أبلَه.. وهو يضمر عند ذلك لصاحبه ما يكره أن يضمر له غيره لو رأى منه مثل ذلك العيب .

فإذا رأيت عيبًا أو زلة أو عثرة من غيرك، فاجعل نفسك مكانه، ثم انظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه، وأضمِر ذلك له في نفسك، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحبه منه .

وهكذا إذا رأيت ما يُستحسن، فأردت أن تعرف علم السلامة من الحسد له .

وبالحري أن يكون أخف الناس عليك عن الزلة من يطلب لزلتك عذرًا ومخرجًا، فإذا لم يجد للعذر موضعًا ساءه ذلك، وأخفى مكانه. وعند حسنتك يُسَر، فإن لم يُسَر لم تسؤه .

فهكذا فكن لهم عند الزلة وعند الحسنة. فإذا كنت كذلك فلا تحب إزالة نعمة أنعمها الله على أحد في دين ولا في دنيا، ولا تحب أن يقيم أحد على معصية الله تعالى، ولا تحب أن يُهْتَك سترُه عن زلّته، فإنك إذا فعلت ذلك بقلبك، زال عن قلبك الحسد، عن الدين والدنيا جميعًا .

ومتى غلبَت عليك المسابقة إلى ضميرك بسوء المحضر، فلا تُغلِبَنَّ على مشاهدته بحُسن المراجعة من جميع أمورك .

علم السلامة بالمراجعة والتفتيش

واعلم أنك مسبوق إلى ضميرك بالحسد، وسوء الظن والحقد، فاجعل المراجعة شُغلًا لازمًا، وكن وقَّافًا كما قال الأول: المؤمن وقاف، وليس كحاطب لَيْل .

فقِف وطالِع زوايا ضميرك بعين حديدة النظر، نافذة البصر، فإذا رأيت أمرًا محمودًا فاحمد الله، وامض، وإذا رأيت مكروهًا داركته بحسن المراجعة، واستقصيت فيه، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك سوف يختبئ فيه، وإن كان مظلمًا فأنت لا تشعر، إلا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح، ويكون معك من العناية بأخذه والإنكار لما دخل فيه ما لا صَبْرَ له عليه، ولا طاقة له به .

ولو قد جرَّبْتَ لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول .

يدخل داخل منزلك بغير إذنك، وهو داخل لا يؤمَن أن يُخرِب المدخول عليه، فإن رأى الداخل منك توانيًا وتهاونًا كان هو المقيم بالمنزل، المدبر له، فاستولى على حُرِّ بيتك، وعلى حرمتك، وإن رأى منك إنكارًا فيه ضعفٌ اختفى لك ليمس سهوتك وغفلتك، فإذا وجد فرصة خرَّب عليك ما كنت أصلحت، وهدم ما بَنَيت، فافهم إن كنت تفهم، واقبل النصح من الناصحين إن كنت تقبل .

فلو رحلت فيما أخذت المطايا، فبلغت حيث تبلغ من البُعد، وأنفقت في سبيل ذلك حُرَّ بيتك، كان الذي أخذت أكثر من الذي أنفقت وتعبت، فإنك تجد الخير الكثير في ميزانك يوم القيامة بصدق المراجعة ومبادرتها قبل أن تبرد عنك حلاوتها، فإنها موهبة عظيمة من مواهب الله تعالى، أكرَمَ بها أهل خاصته، وعظَّم النعمة عليهم فيها، فإن عِظَم النعمة على قدر الحاجة .

فانظر هل راجعت نفسك وأمرك إلا وقد وجدت فيه موضع مَرَمَّة ومصلحة، أو وجدت مفسودًا بعينه، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهبًا إلى يوم القيامة .

المراجعة أساس السلوك الصحيح

واعلم أني إنما أُكثِر عليك وعلى نفسي من ذكر المراجعة لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة إليها، فلو قد تعلَّقت بشيء من الخير فيها يكون ونسبتها، وإلا فلا.. وما تركك لها إلا كالمستأنس لعدوه، والمسلم نفسه إليه، فهلكت وأنت لا تشعر .

وإن كنت متهاونًا بما أقول لك، فإن أكثر حاجتك إليها في صلاة الفريضة، ثم بعدها، وهلم جرًّا في جميع أمورك .

ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة، حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة، فلم تَدْرِ ماذا قرأ إمامك، ولم تدرِ أفي فرض كنت أم في نافلة؟ في صلاة كنت أم في غيرها؟ وأنت في رأي العين ممن يناجي ربه .

قد أصغَيْتَ بأذنيك إلى إمامك، وتخشَّعتَ بوقوفك، وفرَّغت قلبك لاستماع ما يقرأ إمامك من كلام ربك في صلاة فريضتك، التي ليس شيء أوجب عليك منها، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا، وأنت كمن لم يشهدها، لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها .

ولعل الذي حضرتَ منها بقلبك، أو عقلتَه فلم تَسْهُ عنه، لو قيل لك: أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهيًا ولك مائة ألف دينار، لقلت: لا .

فاعتنِ الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك إليها، فإنما لك من عمرك تيقظك، وتيقظك : مراجعة ما فيه منفعتك وقُربَتُك، والمصير إليه بالعقل، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان إلى شهوة فيها غليان قلبك، وفي ذلك موافقة نفسك الأمَّارة بالسوء، والهوى المضل عن سبيل الله، العادل بأهله عن طريق محبته، وفي ذلك تَوَثَّب العدو الخبيث الذي لا يألوك خبالًا، الذي يجري، منك مجرى الدم، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراهم .

قال مالك بن دينار: «قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر، وقلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور». فتعاهد أمرك بالمراجعة. فإن دأبت مكروهًا أصلحته وتحوَّلتَ عنه، وإن رأيت غير ذلك حَمِدت الله، وكانت عنايتك بذلك زيادة لك، أو قربة .

وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة فاعلم أنها نعمة وقربة من أعظم نِعَم الله. وأحق من أحسنت صحبته نعم الله التي مفتاح خزائنها رحمة الله. فالتمس الزيادة منها بالشكر عليها، وأحق من أسأت صحبته نفسك الأمارة بالسوء، والإساءة إليها مخالفتها، فإن في مخالفتها موافقة مرضاة الله .

التهاون في اليسير يوقع في الكبير

قلت: فمن أهل الإرادة؟

قال: من لم يَتَخَطَّ عيبًا ولا عَوْرة إلى نافلة .

قلت: فما حفظ اللسان؟

قال: الصمت .

قلت: فما الاحتياط في التحفظ عند الكلام؟

قال: ترك ذكر عيب من غيرك ترجو على ذكره إذا ذكِّر به الثواب، لكيلا يخرجك ذلك إلى ذكر عيب من غيرك تخاف على ذكره العقاب، وخذ نفسك بهذا الباب أشد الأخذ، واحمل عليه من الناس من استرشدك، وأراد مثل الذي تريد .

فإن العبد إنما يؤتى من قِبَل التهاون باليسير، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير. فيكون أوله كان تحفظًا، ثم صار انبساطًا، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير، ثم صار من اليسير إلى ما هو أكثر منه، فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره أن ترى فيه غيرك، ففي ترك اليسير ترك اليسير والكثير .

وأقوى الناس على ذلك وأصدقهم عزمًا هو الذي إذا عزم أمضى عزمه ولم يَلْوِ، وأضعف الناس في ذلك أضعفهم عزمًا، وهو الذي يعزم ثم يحلُّ عزمه ولا يكاد يمضي عزمًا .

فهذا الذي يتلاعب به الشيطان والهوى والنفس، ليس له عندهم قدر، لكثرة معرفتهم بتناقص عزمه، وقلة استعماله، وأولو العزم من الناس أفاضل الخلق من كل طبقة .

القريب من التوبة والبعيد منها

صدق الندم وعلامته

قلت: فمن أرجى الناس لقبول التوبة منهم؟

قال: أشدهم خوفًا، وأصدقهم ندامة على ما كان منه، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله، وخطله، وطول غفلته، ودوام إعراضه، وأحسنهم تحفُّظًا فيما يستقبل. وإن استووا في ذلك فأشدهم اجتهادًا في العمل .

لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب : شدة التحفظ فيما بقي من العمر، ومواثبة الطاعة بالجد والاجتهاد، واستقلال كثير الطاعة، واستكثار قليل النعمة، مع رقة القلب، وصفائه وطهارته، ودوام الحزن فيه، وكثرة البكاء، والتفويض إلى الله تعالى في جميع الأمور، والتبرِّي إليه من الحَوْل والقوة، ثم الصبر بعد ذلك على أحكام الله عز وجل، والرضا عنه في جميعها، والتسليم لأموره كلها .

الخطأ في طريق التوبة ونتائجه

وقال لي: قد علمت من أين غلطت: أحسنت الظن بنفسك، فتاقت إلى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم، من غير إنكار منك عليها لمساوئ أعمالها، ولا دفع لما ادعته من أعمال الصادقين .

وأسأت الظن بغيرك، فأنزلتهم في درجة المسيئين، إغفالًا منك لشأنك، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك .

فلما كان ذلك منك كذلك، عوقبت بأن غارت عيون الرأفة والرحمة من قلبك، وانفجرت إليه أنهار الغلظة والقسوة، فأحببت أن تنظر إلى الناس بالإزراء عليهم، والاحتقار لهم، وقلة الرحمة، وأردت أن ينظروا إليك بالتعظيم والمهابة والرحمة. فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قربًا ومحبة، ونلت أنت من الله تعالى بعدًا وسخطًا، ومن خالفك فيه ازداد منك بعدًا وبغضًا، وازددت أنت من الله بعدًا وسخطًا .

وأطلت في ذلك كله أمَلَك، فطاب لك المسير في طريق التسويف، ومدارج الحَيْرات، فاشتدت رغبة نفسك، واستمكن الحرص من قلبك، فعظُمت لذلك في الدنيا رغبتك، وشحَّت، فجمحت إلى شهواتها، واحتوَشَتْ قلبك لذَّاتها، فحال ذلك بينك وبين أن تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة .

فقلبك حيران على سبيل حيرة، قد اشتبهت عليك سبل النجاة، وشقق حجاب الذنوب، فأنست لقربها، وطاب لك شم ريحها، فوصلت بذلك إلى محض المعصية، فادعيت ما ليس لك، وتناولت ما يبعد مرامه من مثلك .

ثم أخرجك ذلك إلى أن تكلمت لغير الله، ونظرت إلى ما ليس لك، وعملت لغير الله، فكنت مخدوعًا مسبوعًا عند حسن ظنك بنفسك وأنت لا تشعر، ومستدرجًا من حيث لا تعلم، فكان ميراث عملك: الخبث، والجريرة، والغش، والخديعة، والخيانة، والمداهنة، والمكروه، وترك النصيحة، وأنت في ذلك كله مظهر لمباينة ذلك .

فمن كانت هذه سيرته، فلا ينكر أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب .

فلو كان لك يا مسكين أدنى تخوُّف، لبكيت على نفسك بكاء الثكلى المحبة لمن أثكلت، ونُحْتَ عليها نياحة الموتى حين غَشِيَكَ شؤم الذنوب .

ولو بكى عليك أهل السماوات وأهل الأرض لكنت مستوجبًا لذلك، لعظَم مصيبتك .

ولو عزَّاك عليها جميع الخلق تعزية المحروب المسلوب لكنت مستحقًّا لذلك، لأنك قد حُرمت دينك، وسُلِبت معرفتك بشؤم الذنوب، فركبك ذل المعصية، وأثبت اسمك في ديوان العاصين، واستوحش منك أهل التقوى، إلا من كان في مثالك .

فأخذ الذين أرادوا الله وحده في طريق المحبة له، وسلكوا سبيل النجاة إليه. وأخذتَ في غير طريقهم، فملت حين خالفت طريقهم إلى غيره، فبقيت متحيرًا، وعن وجع الإصابة متبلدًا .

وبمثل هذه الأسباب التي اشتملت عليها طريقتك يستدل على خسران القيامة، وبالله نعوذ، وإياه نسأل عفوًا وتقريبًا مع المحسنين، إنه لطيف خبير .

المعرفة بلا عمل وسيلة للعمل

قلت: أما تخاف أن تكون هذه المعرفة حجة عليك؟ والاشتغال بوصفها خدعة من الشيطان، طويلة، وصَدًّا عن نفعها؟

فقال: واسوأتاه من غفلة واصفها عن محاسنها، ومن رام رمى فلم يخطئ حيث أراد، فأما الأمن فمحرَّم، وأما الخوف ففرض على من يؤمن بالله واليوم الآخر، وبالوعد والوعيد .

وقد علمت أن القصد إلى نفس المحبة، والعناية بها، أبلغ لصاحبها، وأكثر له في المنفعة منه بوصف المحبة، لأن طلب نفس المنفعة غير طلب وصف المنفعة. وإنما اشتغلتُ بالوصف اضطرارًا، حيث رأيتُ نفسي خارجًا منها جميعًا، فاعتنيت بمعرفة وصفها، والهداية إليها، رجاء أن يوصلني إلى نفس المنفعة، والهداية إليها، والله المستعان على ما نقول وما نضمر .

خلاصة المعارف

وإن العبد بين تسع مخاوف :

فأولاها: أن يخاف ويدعو الله، ويتضرع إليه : ألا يَكِله إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلمًا وعدوانًا .

والثانية: أن يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البَطَر بها، فأشغله عن الشكر عليها .

والثالثة: خوف الاستدراج بالنعم وتواترها .

والرابعة: خوف الله أن يبدو له غدًا من الله ما لم يكن يحتسب، في طاعاته التي يرجو ثوابها، ولم يعُدَّها من ذنوبه .

والخامسة: الذنوب التي عملها، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى .

والسادسة: تبعات الناس قِبَله .

والسابعة: أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره .

والثامنة: أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا، والنكال فيها قبل الفَوْت .

والتاسعة: الخوف من علم الله تعالى فيه، وفي أي الدارين أُثبتَ اسمه في أم الكتاب .

فاحذر الذنوب فإن شؤمها قريب، وظلمتها شديدة، واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين، فما أقرب القارئ المتعبِّد بغير معرفة أن يتكبر على عباد الله عز وجل، ويَمُنُّ على الله سبحانه وتعالى بالحسنات التي لو وكله إليها كان فيها هلاكه، وما أقربه من أن يطلب الناس بما أراده الله منهم من الطاعة له عز وجل، والإجلال والإعظام، والقدر العظيم .

ولا يؤمن على القارئ غير الفقيه أن يسيء إليهم، ويطلب منهم الإقرار بالإحسان، ويعطيهم من نفسه ما أراد الله منه .

إن الله تعالى أراد منه : أن يتزين له، ويتعبد له، ويخلص له العمل وحده، فأعطى هو للمخلوقين ذلك من نفسه .

المدح والذم

الفرق بين الرياء وحب المدح وكراهة الذم

قلت: الرجل يقول: إنه ممن لا يريد بعمله جزاءً ولا شكورًا، وهو معروف بأعمال البر: بالصلاة، والصدقة، والصيام، وغير ذلك. وقد مدحه قوم فسرَّه ذلك جدًّا، وفرح به، وذمَّه آخرون فساءه ذلك جدًّا وكرهه، حتى عرف من نفسه التغيُّر لكلا الفريقين جميعًا، كيف يعرف هذا نيَّته وحب المحمدة وكراهية المذمة ثابت في قلبه؟ والمرائي يحب الثناء، ويكره المذمة .

قال: إنه لا يجب على الناس أن يكرهوا الثناء الحسن والمحمدة، ولا يجب عليهم أن يحبوا المذمة، عملوا الحسنات أو لم يعملوا، إذا لم يكن ذلك منهم من معنى فاسد، لأن المرائي وإن كان يريد العمل على أن يحب المحمدة ويكره المذمة، فإن الصادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة .

وإن أكثر الصادقين قد مدحوا، وأثني عليهم، ولم يضرهم ذلك شيئًا .

وإنما الفرق بينهما: أن المرائي إرادته وأمله في عمله جاه الدنيا، والمنزلة عند أهلها، فأفسد عمله بنيته وإرادته، نال الذي أراد من ذلك أو لم ينله، حمدوه على عمله أو لم يحمدوه، ذموه أو لم يذموه .

وغير المرائي إنما كره المذمة لحال ما فيها من الكراهية، مثل السقوط من أعين الناس، والبغضة والمقت من المؤمنين، وأشباه ذلك، والثناء الحسن، والقول الجميل أحبه لموضع ستر الله، ولما جاء من الرجاء في الثناء الحسن، والقول الجميل، والمحبة من الناس، ومودتهم له، وكان اعتقاد نيته وعزمه في أول أمره وآخره. ألا يريد بذلك إلا وجه الله وحده، والدار الآخرة، حمدوه أو ذموه، أحبوه أو أبغضوه .

الخوف مِن تحوُّل النية

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله: إرادة الآخرة، ثم ينتقل قليلًا قليلًا إلى إرادة الدنيا . وذلك أنه شيء خفي، والعامة تقل معرفتهم به، وعنايتهم بذلك، وتكثر غفلتهم وسهوتهم عنه، وقد كان ينبغي أن تكون عناية المؤمن بذلك أكثر من عنايته بما يعمل من الأعمال الظاهرة، لأن أعمال الجوارح لا يمكنه أن يقلبها، ولا يغيرها عن حالها، والنية لا يأمن عليها الفساد وإن كانت صادقة صحيحة : أن تتحول من أحسن ما كانت عليه إلى أقبح ما تكون عليه، وأفسد لعمل صاحبها .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى ».

فالأعمال بالنية تكون، وعن النية تكون، فالعبد أحوج إلى معرفة النية، ومعرفة فسادها، إذ كانت الأعمال إنما تصح بتصحيحها، وتفسد بفسادها، وإن جميع ما نذكره إنما هو وصف للعمل، وللحقيقة والصحة علامات غير هذا .

وإن الأعمال كلها عملان: عمل تُمكن فيه النية، وعمل لا تمكن فيه النية. والعمل لغير طاعة الله أو على غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمكن فيه النية. والذي تمكن فيه النية عمل في طاعة الله على السبيل والسُّنة. والناس فيه صنفان :

صنف يعرفون النية، وصنف لا يعرفون النية .

والذين يعرفونها صنفان :

صنف يقنعهم النظر فيها بالجزاف والأماني، وصنف لا يأتمنون أنفسهم عليها، ولا يعنون إلا بما يصح لهم من ذلك عند الميزان، وهو المحنة، محنة نفسك .

وجوب الدقة في مراقبة القلب

ومن الناس من يرى أنه يكره المحمدة والثناء إشفاقًا على عمله، وخوفًا من فتنته، فلا يعبأ بما يخيل إليه من ذلك ويظن، لأن كثرة ما يظن الناس من ذلك ليس كما يظنون، حتى ينظروا إلى تحقيق صدقه عند البيان .

فليراجع العبد نفسه إذا أُثْنِيَ عليه أو مُدح، أو ذموه أو نسبوه إلى ما يكره، فإن كان ما أعجبه من الثناء والمدحة إنما أعجبه لمعنى ما قلنا من الستر، والرجاء في الثناء الحسن، والقول الجميل، لمثل قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ . ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾، قال: الثناء . وقال:﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، قال: الثناء الحسن. وقوله : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، قال: الثناء الحسن .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل يعمل العمل يريد به وجه الله، فيحمده عليه الناس، ويثنون عليه به، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن». وقوله صلى الله عليه وسلم في العبد إذا أحبه الله: «لم يخرجه من الدنيا حتى يملأ مسامعه مما يحب ». وقوله: «أنتم شهداء الله في الأرض». وأشباه ذلك في الكتاب والسنة .

فإن كان سروره بما ذكر به من الخير شكرًا لستر الله عليه، وحمدًا منه لله، إذ جعله الله عز وجل ممن يُذكر بعلامة الخير، فليس ذلك بسرور فاسد، ولكنه شكر وطلب مزيد .

وعلامة سلامة نيته في ذلك: أن يزداد لله تواضعًا، ولآلائه شكرًا، وفي طاعته اجتهادًا. ومع ذلك ينبغي أن يرد نفسه إلى طريق المخافة من الاستدراج، ويكون ما خفي من عمله أحب إليه مما ظهر، مخافةَ ما يلحق أهل الصلاح من الفتنة فيما يستمعون من المدحة والثناء، ولما جاء من النهي والكراهة والتزكية والمدحة أن يسمع صاحبه.. وذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «من مدح أخاه في وجهه فكأنما أمرَّ على حلقه موسى رميضًا»، ومثل قوله عليه السلام: «لو سمعك ما أفلح». ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: «عقرت الرجل عقرك الله». وهذا نحوه كثير .

فإذا كان مذهبه ونيته شكر الله على ستره، وحمد الله على نعمته، ويكون ما سبق من السرور إلى قلبه في ثناء إذا سمعته رجاء القدوة به، إذا كان ممن

يصلح أن يُقتدى به، لقول الله عز وجل : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، يقول: أئمة في الخير يُقتدى بنا .

فإن كان كذلك رجوت ألا يضره ذلك، ولا يفسد عليه عمله .

وقد ذكر عن مطرف أنه قال: «ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغَرَتْ إليَّ نفسي ».

وقال زياد بن أبي مسلم: «ليس أحد مسمع ثناء أو مدحة إلا تراءى له شيطان، ولكن المؤمن يراجع». فقال ابن المبارك: صدق كلاهما .

أما ما ذكر زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكر مطرف فذلك قلب الخواص .

وإن كان مذهبه ونيته إذا سمع ذلك وسُرَّ به طلب الرفعة والمنزلة عند الناس فما أسوأ حاله في إحباط عمله .

مذهب الصالحين وأهل الرياء في المدح والذم

وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره، طلب الثناء والمحمدة، والرفعة والتكرمة عند الناس، وإحراز المنافع به، فذلك الذي جاءه الويل والثُّبور في الدنيا والآخرة .

فإن كان يعرف معرفة حق: أن ما أعجبه لهذا المعنى، ولم يعجبه ذلك لما نال من الجاه عندهم فلا جناح عليه .

وعلامته أن يزداد تواضعًا، ويُحدِث خوفًا من الاستدراج، وما يخفي من عمله فهو أحب مما يظهره، لأنه طمع في طريقة الصالحين، فعلى قدر ذلك ينبغي أن يرغب في أعمالهم، وما نالوا به اسم الصلاح، وصاروا من أهله، مع ما يلزمه من الخوف من الفتنة، مما يلزم أهل الثناء والمحمدة إذا أُثني عليهم أو مُدِحوا، مثل قوله عليه السلام: «عقرت الرجل». ومثل قوله: «لو سمعك ما أفلح». وقوله: «قطعت عنق أخيك». وقوله : «إياكم والمدح فإنه الذبح». وقوله: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب». وقوله: «لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرًا له من أن يثني عليه في وجهه ». ومثل هذا كثير .

وصاحب المدحة الخوف عليه أكثر من الرجاء، لأن الخوف لا يضره، والرجاء لا تؤمَنُ فتنته .

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا، وأصحاب الرياء المحبين لذلك: أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك، وازدادوا عزة وإعجابًا بأنفسهم، وغفلة عن الاستدراج، وتمادَوْا وتَمَنَّوْا، وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب إليهم مما خفي، ولم يخافوا من فتنة، ولا من آفة .

وكذلك إذا كره المذمة، إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء، لينال بذلك الجاه والقدر، والمنزلة والرفعة عند الناس، فهي كراهية سقيمة مذمومة، وصاحبها مغرور مخدوع .

وإن كان إنما هي حب منه لستر الله عليه، وكراهية هتك الستر عنه، لأنه لم يمقته الناس حتى جاءه المقت من عند الله قبل مقت الناس، فإن كانت

الكراهية إنما هي من هذه الجهة، فإن هذا يكرهه الصادق وغير الصادق، فلا يُلام عليه .

وعلامته: التضرع، والاستكانة، والمراجعة، والنظر في التخلص إلى طريق محبة الله تعالى، وسبيل الاستقامة، ومحجة الإيمان، والجد فيه .

زيادة بيان لعلاقات الفريقين

وأبين من ذلك: أن كل من زعم أنه يريد بعمله وجه الله، ولا يريد من أحد على عمل يعمله من الأعمال الصالحات جزاءً ولا شكورًا، ثم عرفه الناس بعمله، وذكَره به، وصار معروفًا عندهم، ونال منهم الرفعة، فإن كان يعرف من نفسه أنه إذا عرض عليها أن يتحول اسمه وما نال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة إلى غيره، ويبقى هو عند الناس كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر، ذكرٌ ولا غيره، فكان هذا أحب إليه، فأمره مرجوٌّ .

وإن كره أن يتحول ذكره الذي كان عليه إلى غيره، ويبقى هو كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر، فدعواه حينئذٍ باطلة .

لأن الذي يقوله: إنه يريده بعمله ولا يريد غيره، فإذا تحول ذكره إلى غيره، لم يحول الذي عمل له العمل الثواب إلى غيره، ولم ينقصه من ثوابه شيئًا، ولعله أن يكون أكثر له عنده، وأقرب مثوى .

والذي كان يزعم أنه لا يريدهم به، كره أن يزول عنه الاسم الذي ثبتت له عندهم به المنزلة، وكره أن يبقى عند من زعم أنه لا يريدهم بلا ذِكر عمل يعرفونه به .

ومثل هذا ينظر، إن كانت له خصلة عند الناس من خصال البر، فنسبوه إليها، ويظنون أنه صاحبها، غلطًا منهم بها وجهالة، فكره أن يعرفوا ذلك، أو يطلعوا عليه، وكره أن يعرفوا أنه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة. أو له عمل من البر، وعند الناس أن ما يعمله من البر أكثر، فيكره أن يطلع الناس عليه، فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من أعمال البر، فإنه ممن يحب أن يحمد بما يفعل .

ولا يمكن أن يكون واحد يحب أن يحمد بما لم يفعل، ولا يحب أن يحمد بما قد فعل، حتى يحبهما جميعًا .

كذلك إن صحب رجلًا معروفًا بالصلاح والعبادة عند الناس، أو له سبب قد نال به ذكرًا من غيره، فكره أن يسقط ذلك عند الناس، ولم يعبأ بمحبة نفسه عندما يعمل من أعمال البر، فإنه ممن يحب أن يحمد بانتسابه إلى غيره، ولا

يمكن أن يحب الذكر بعمل غيره ولا يحب أن يذكر بعمل نفسه الذي يعمله، حتى يحبهما جميعًا .

فإن وجد نفسه في هذه المواضع صادقة على ما يحب عليها فيه الصدق، فأرجو أن يكون من أهل الصدق إن شاء الله تعالى .

اليقين والعز

صدق اليقين

وأما اليقين فعند العمل. والصدق فيه: مشاهدة الثواب والعقاب، فليس بكثرة النفقة، ولا بكثرة الكلام، ولا يحتاج فيه إلى تحريك الشفتين، ولكن بالإيمان وبالعقل، وبالمعرفة، وحسن التدبير، في ظاهر أمر العبد وباطنه .

فتعرف الصدق، وتعرف ضده من الكذب. وتعرف الخير، وتعرف ضده من الشر. فتعمل في إثبات الصدق، ونفي ضده، وتعلم الأصل من الفرع، فيكون الشغل في إثبات الصدق من وجه الأصل، وانتفاء ضده من وجه الأصل، فإن الأصل يأتي على الفروع .

وما دام العبد يشتغل بالأصل عن الفرع، فليس لشغله فناء، ما دام الأصل ثابتًا، كلما ذهب فرع أخلَف فرعًا آخر بَدَلَه .

العز في النفس أصل مرض القلوب

وحب العز أصل، ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس، ومنه الكِبْر والفخر، ومنه الغضب والحسد، ومنه الحقد والحمية والعصبية. والنفس عاشقة له، وهو قرة عينها، وهو أحب إليها من أم واحد لواحدها .

وبلغني: أنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة، وذلك لصعوبة تمكُّنه من النفس .

فالعمل الصالح من غير المريد المستحكم من أهل القراءة سلاحه الذي يقوي به سلطانه هو العز في النفس، والفخر بالعمل، والإزراء على الناس .

وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد، وعزه في نفسه زائد. نعم، وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز .

ولا أعلم أني رأيت أحدًا من أهل النسك خاليًا منه، يعني من العز .

فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه لم يفلح معها، عابدًا كان أو زاهدًا .

وكيف يكون زاهدًا، والزهد لا يأوي معه في مأوى واحد .

فمن عالج نفي العز من نفسه، ووفقه الله لذلك، فنال نَفْيَه، سهُل عليه المسير في طريقة محبة الله عز وجل، ومحجة الإيمان، وسبيل الاستقامة، ومدارج الصالحين، وهان عليه معالجة الصدق في عمله، واطمأنت نفسه إلى التذلل والتواضع، وطاب له طريق العدل .

لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز.. ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز.. ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز .. ولا يقدر على التواضع الذي هو شرف التقوى وحليتها وفيه العز.. ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز.. ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز.. ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز .. ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العز.. ولا يقدر على النصح وفيه العز.. ولا يسلم من الإزراء على الناس وفيه العز .

فما أكثر ضرره، وأعظم فساده، وأظهر أمره، وأقل رشده، وأبْيَنَ غَيِّه عنه الخاص والعام، وما أغفل الناس عنه، وأقل معرفتهم به، وأشد متابعتهم له !

فالهوى حكمه.. والكبر أخوه وعضده.. والجَوْر سيرته.. والغضب سلطانه.. والرياء عون من أعوانه .. له يكسب.. وإليه يؤدي.. والعجب أضعف عون له.. والحسد أمير جنوده.. والغِلُّ صاحب مشورته .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكبر والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال بعضهم: الغل والحسد .

العز عام في الخلق، وخاص في القراء

والعز في الخلق عام، في العبيد والإماء، والفقراء والأغنياء، والضعفاء والأقوياء، والقراء والعلماء وكل واحد منهم يظهر منه على قدر ما يمكنه إظهاره، ومن لم يمكنه الإظهار عامل الناس به سرًّا في نفسه، لأنه ما دام في الإنسان لا يترك حظَّه منه سرًّا ولا علانية .

أما تراه كيف يتغيظ في نفسه على غيره، وكيف يحسده، ويدور حوله يطلب عوراته، وكيف يحكم فيه بحكم الهوى؟

ولو ملك من ذلك في الظاهر ما ملك في الباطن لأظهر مثل الذي أضمر من ذلك في الباطن .

وأقبح أمره وأفسده له، وأشده فضيحة إذا كان في القارئ، لأنه لا يكاد يتعزز على غيره بسبب من الأسباب إلا بأسباب الدين، وإلا رأيت فيه أثر ذلك .

فسبحان الله! ماذا يلقى القراء خاصة من العز ومن أعوانه !

يدلك على ذلك سرعة حقدهم، وكثرة غضبهم لأنفسهم من طريق الإعزاز لها، وما يجدون على الناس فيه مما لا خطر له، وذلك كله من داء العز وحركته أمر لم يجز لأهل الجنة، ولا للملائكة، ولا للنبيين، يريد القارئ أن يجوزه لنفسه، وأن يجعله فوق رأسه .

وإنما كان ينبغي للصادق في قراءته العمل في إطفاء العز من قلبه من أول أمره، وأن يجعله تحت قدميه، ولو أن رجلًا صلى الغداة، ثم أقبل على نفسه وأصلح خصلة من خصال العز، ليس العز كله، وآخر تصدق بوزن نفسه ذهبًا على أكباد جائعة من وجه طيب، لكان الأول أغبط، وكانت النعمة عليه أكبر، والشكر عليه أكثر عند أهل المعرفة والعلم .

فكيف إذا أصبح وهو لم تكن له همة إلا العناية بالعز لنفسه، لتجربته له، ومعرفته له !

وآخر أصبح ولم تكن همته ولا محبته إلا العناية بنفي العز من قلبه، ولزوم التواضع، وذل النفس، لتجربته لنور التواضع، ومعرفته بفوائده .

فهنيئًا لمن شغله مثل شُغله.. ما أنفعه من شُغل، وأرضاه عند مليكه، وأرْوَحَه للقلب !

فاعتبر برجلين أُمِرَا بالعبودية، وأحدهما أحب أن يجعل نفسه عبدًا كما أمر، وأحب الآخر أن يجعل نفسه مَلِكًا، أيُّ هذين أولى بالجائزة من المولى، وأيهما يستأهل العقوبة الموجعة؟

وسائل علاج العز

قلت: قد وصفت من فساد العز وضرره وشره ما قد وصفت، فصف لي طريق التحرز والامتناع منه، فإن المريض إذا عرف داءه، أحب أن يعرف دواءه، وهكذا من أحب أن يعرف عيب نفسه، يحب أن يعرف الذي يصلح به عيبه .

فقال: إن ابن آدم تكلَّف نزول الطير من جو السماء فأنزله .

وتكلَّف خروج الحوت من قَعْر البحر فأخرجه .

وتكلَّف إخراج الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجهما .

وتكلَّف أخذ الدواب والأنعام والوحوش والسباع من البراري والغياض، فأخذها وذللها وسخرها .

وتكلَّف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها .

وتكلَّف معالجة الشياطين فعالجها .

وتكلَّف معرفة النجوم في السماء وأسمائها ومجاريها ومطالعها ومغاربها .

وتكلَّف منازل الشمس والقمر ومجاريهما، ومطالعهما ومغاربهما .

وتكلَّف معرفة الولد إذا لم يكن من أبيه، فعرف ذلك كله لما تكلَّفه .

وتكلَّف مرض المريض وأسباب علله بالنظر إلى بوله من غير أن ينظر إليه، فعرف داءه، وعرف دواءه، فعرف كل ذلك .

وتكلَّف تعلُّم سير الملوك الماضية من القرون الأولى، فكتبها ودرسها .

وكل ما تكلَّف من ذلك، فإنما حمل نفسه على تكلُّفه لطلب الزيادة من الدنيا، وليس في هذا من أمر دينه الذي كُلِّفه شيء .

وكُلِّف تقويم نفس واحدة فلم يقم بتقويمها، وليس عليه من فساد غيرها شيء.. لم يكلَّف إلا بإصلاح فساد نفسه وحدها، فلم يقم بإصلاح فسادها،

فجهل بعض الصلاح وعلم بعضًا، فما جهل فهو جاهل به، لا يتكلّف علمه، وما علمه من فسادها فهو مضيع لإصلاحه .

ولم يُكَلَّفْ أحد أن يصوم ولا يصلي ولا يزكي ولا يحج ولا يتوضأ ولا يغتسل عن أحد. إنما كُلِّفَ نفسه، ليس لأحد من صلاح أحد شيء.. وإنما صلاح كل امرئ وتقواه لنفسه.. وفي ميزانه.. ليس في ميزان غيره منه شيء .

وهكذا النية في الأعمال.. لا تنفع نيتي عملك، ولا تنفع نيتك عملي إذا كانت صحيحة، ولا تضره إذا كانت سقيمة.. وإنما المنفعة والمَضرة على صاحب النية، وصاحب العمل، وإنما هي نفس واحدة، فإذا صار إلى أمر نفسه لم يعرف خيرها من شرها، ولا إقبالها من إدبارها .

يعمل الخير فلا يدري مُقبِل هو فيه أم مدبر إلا بظاهر العمل والدعوى، ولا يدري أي شيء يعمله للدنيا أو للآخرة، ليس يميز بين الأمرين، ولا يفاتش الهمة فيه، والمحبة له، ولا الخشية فيه، ولا يتوقف، ولا يحسن أن يطالع ضميره، فهو يفسد الخير بالشر ولا يشعر .

هو في ظاهره مقبل.. وهو في باطنه مدبر.. وهو في ظاهره آبق إلى الله، وهو في باطنه آبق من الله ..

فسبحان الله ! ماذا تكلَّف المسكين من معرفة ما لم يكلَّف، فشغل عنايته فيه، وشغل فهمه به، وأما الذي جهل فضيع من معرفته فهو ما قد كُلِّفَ، وأُخذ عليه فيه المواثيق .

يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين دخل؟ وأنَّى أتاه؟ وكيف هو؟ وما السبيل إلى التخلص منه؟ فبقي عند ذلك تائهًا حيران.. وقد عالج ما في الهواء.. وما في قعر البحار.. فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكفل الله له منها بما قدَّر له، وضمن له الوفاء بها، أقبل عليها أو أدبر عنها .

فغلَب المسكين الخَلْق.. وغلبته نفسه.. ولو عني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها، وخيرها وشرها، وخاف التلف عليها، كما عني بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له، لعرف من فسادها وصلاحها مثل ما عرف من ذلك، وقَدِر منه على ما قَدِر من ذلك، ولكنه رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلا بعلم وبصيرة.. ومتى شئت رأيته في طريق الدنيا، وهو يحسب أنه في طريق الآخرة .

ومع ذلك فإن بعض المدبرين عن الله تعالى، المعرضين عنه، قد تسمَّوا علماء، ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله، وهم حيارى متصنعة، مدخولون متشبهة، يحسبهم الجاهل أدلاء، وهم عميٌ حيارى، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

واعلم أن العز والتعزز ليس بغائب قادم عليك، فتريد التحرز منه، والامتناع عليه، ولكنه شيء قد حلَّ بك، ونزل وتمكن من المنزل، واستوى وجلس في صدر المجلس، وأخذ منك خيرك، وغلب أَخْيَرَ موضع فيك، واتكأ على مُتَّكئه، واستخدم أعوانه بما يوافق هواه في إقبالهم وإدبارهم .

ولا أكثر عليك من صفات فروع دوائه فتمل وتعرض، ولكن أدلك على الأصل الذي إذا عالجته أتى على الأغصان كلها، وهو: الإياس من جميع المخلوقين أن يضروا أو ينفعوا، أو يعطوا أو يمنعوا، أو يحيوا أو يميتوا، فألزمه قلبك، فإنه أصل الأصول، ورأس الأمر وسنامه .

فإن كنت مريدًا صادقًا، تحب النظر في عواقب الأمور، فأغلق على نفسك باب الطمع، وافتح لها باب الإياس، وانفرد لذلك بإرادتك كلها، وتجرد في طلبه، كالذي ليس له من حوائج الدنيا كلها إلا حاجة واحدة .

وتعزم عزمًا صحيحًا على أن تهب نفسك لله في بقية عمرك، إن كنت تراه لذلك أهلًا، سبحانه وتعالى، ما أغناه، عن أهل السماوات وأهل الأرضين، وما أشد اضطرارهم إليه .

فاجعل يا أخي نفسك كهيئة الأسير في أيدي أهل زمانك أيام حياتك في اتباع مرضاة الله عز وجل، والتخلص من بلية العز، فإن الأسير مملوك لا يملك، ولا يطمع أن يظلم أحدًا، ولا ينتصر من ظالم. ثم تجد حلاوة طعم ذكر الله، ولذاذة المناجاة في عبادة الله .

وإنما قلت لك: استخراج العز، وقطعه عن قلبك باليأس من الناس لأنه يردك إلى الله، ورجوعك إلى الله سكون قلبك عليه، وفي سكون قلبك عليه الازدياد من طاعته، والوصول إلى خاصية عبادته. وفي الوصول إلى خاصية عبادته النزول عند درجة العبيد.. وفي النزول عند درجة العبيد إصابة شرف العبودية .. ومن إصابة شرف العبودية اكتساب القلب المَذلة لله عز وجل.. فأعزك بطاعته.. وخضعت له.. فشرَّفك بعبادته. قال الله عز وجل :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وقال في المذموم من العز : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ .

*

قلت: وكيف يميز بين العزَّين؟

قال: أما المذموم منهما فينبو عن طاعة الله، والمحمود منهما يزيدك تذللًا في طاعة الله عز وجل .

واعلم أن الأمر إذا انتهى في الضيق اتسع، وما هو إلا قطع الطمع واستعمال الإياس، فإذا أنت قد صرت في وادي الرَّوح والراحة والفرح، فتنعمت مع أهل هذه الدرجات بذكر الله، والتلذذ بحلوة المناجاة، والبكاء من خشيته، ذقت حلاوة اليقين، وفرح الرضا، وراحة التفويض، وخفة محمله، ثم صرت تنظر إلى من يتعذب ويجول في سلطان العز وملكه .

فهنيئًا لك حينئذٍ، تصبح وتمسي ليس لك هم ولا حزن إلا فيما أنت وارد عليه من أمر آخرتك، والله ينظر إلى همتك وإرادتك في وادٍ، والناس في وادٍ غيره .

الخير والشر

فقه التجارب والعناية بالنفس

واعلم أنه من كان من أهل العناية بنفسه، ورزق فَهم التجربة، بلغ معرفة الخير والشر، وعرف من أين وكيف، وعبر ووصف، وفهم وفطن، ونطق بالحكمة، وكان ما يسمع من الموعظة زيادة له في فهمه ومعرفته ووصفه، ودقائق فطنته، وسر حاجته .

ومن كان من أهل العناية، ولم يُرزق فَهم التجربة، عرف من معرفة الخير والشر على قدر عنايته، ووصف عن صفتها وعبارتها، ومن أين وكيف، وضعف عن النطق بالحكمة، وكانت الموعظة زيادة له في معرفة خيره وشره .

ومن لم يُرزق الفهم، وليست له عناية، فهو لا ينطق بلسانه عند الكلام، ولا يعقل بقلبه عند السماع .

ويُروى أن الحكمة تقول: من طلبني فلم يقدر عليَّ، فليعمل بأحسن ما يعلم، وليَدَعْ أشر ما يعلم .

الحكمة والتفتيش

وقال: الأمور منافعها متفاوتة، وضررها متفاوت، فمنفعة بعضها أكثر من بعض، وضرر بعضها أكثر من بعض، ونجد أكثر الناس إنما عنايتهم بإصلاح ما هو أقل ضررًا، فهم في إصلاح ذلك أكثر من إصلاح ما هو أكثر ضررًا، وطلبهم لما هو أقل منفعة أكثر من طلبهم لما هو أكثر منفعة .

وبعض الأمور تركها أشد على العبد من بعض، وصاحب الإرادة لا ينبغي أن يغلط في هذا، ولكن يفاتش أموره كلها مفاتشة شديدة، بالعناية وغائص الفهم، ودقائق لطائف الفِطَن، حتى يعلم ما هو أشد عليه في الترك، ويعلم ما هو أسلم له، وأنفع له، فيجعل جِدَّه وجديده، ومعرفته وعلمه، وفهمه وكياسته، وعنايته وفطنته فيما هو أشد عليه في الترك، وأكثر ضررًا عليه .

والناس في ذلك مختلفون، فرُبَّ رَجل يهون عليه ترك شيء يشتد على غيره، ويشتد عليه ترك شيء يهون على غيره تركه، ويشتد عليه طلب ما يهون على غيره، ويهون عليه طلب ما يشتد على غيره، لأنه حُبِّب إلى هذا من الأشياء ما لم يُحَبَّب إلى غيره، وبُغِّض إليه من الأشياء ما لم يُبَغَّض إلى غيره .

وربما كان أمران ضاران كلاهما، وأحدهما أكثر ضررًا من الآخر، ومؤنة تركه ليست بأشد على صاحبه من تركه الآخر، ولكن المعرفة تَقْصُرُ بالعبد عن حسن المأخذ له، والترفق فيه، فهو لما هو أشد عليه تركه، وأقل ضررًا أقوى وأترك له مما هو أكثر ضررًا، وأهون عليه تركه، وهو عن ذلك أضعف، وأعجز عنه .

ولا يعرف هذا إلا من يقلب الأمور تقليبًا، ويفاتشها تفتيشًا، فينظر هذا الذي يُؤتى منه، ما سببه؟ ثم لم ير على نفسه من ترك ذلك السبب كبير مؤنة، فيقول: لا أترك هذا. ولكن أترك هذا الذي يشتد على نفسي تركُه، وليس فساد هذا الأمر الذي قد عزم على تركه وهو أشد عليه كفساد هذا الأمر الذي لم يعزم على تركه .

الغفلة واليقظة

خصائص الغفلة واليقظة

قلت: فما الذي بطَّأ بالخاصة والعامة عما هو أكثر لهم ضررًا، وأشد عليهم؟

قال: قد أخبرتك أن الناس فيه مختلفون. فرُبَّ شيء هو أسلم من شيء آخر، ورب شيء هو أضرُّ عليهم من الآخر .

وأما أنا فلا أعرف خصلة أكثر في الناس، ولا أغلب عليهم، ولا أكثر ضررًا، ولا أشد عليهم تركًا، على الخاص والعام، والعالِم والمتعلم والجاهل، من الغفلة .

وأشد الغفلة الذي أنت عنه غافل، وبه جاهل .

وأشد ذلك على الناس، وأكثر عندي فيهم : الإعجاب .

انظر.. هل ترى أحدًا هو عند نفسه جاهل في أمر الآخرة وأمر الدنيا؟

انظر هل ترى أحدًا يتعرض لشيء لا يعلمه، وليس هو حرفته، إلا يقول: أنا به عالِم؟ وإنما أُتِيَ هذا الجاهل المغتر المدعي لعلم الآخرة من قلة قدر الآخرة في قلبه، وقلة تعظيم حرمات الله عز وجل .

وانظر.. هل ترى أحدًا عند هذا الغافل المغتر الجاهل أرفع عند نفسه منه، وأعلم منه؟ فيُقر بذلك على نفسه، إلا ما لا يجد منه بُدًّا، ولا يستطيع دفعه؟

الغفلة واليقظة

قلت: فما الذي ترجو أن يكون أصلح لهم وأنفع؟

قال: التيقظ أصلٍ كل خير، كما أن الغفلة أصل كل شر.. فما أكثر من يكون عند نفسه متيقظًا وهو غافل، وما أحب إليه التغافل عن التيقظ، وأنسه بالغفلة !

واعلم أن أبْيَنَ علامات التيقظ: الهم والحزن، ثم حسن الاستعداد لما اهتم له وحزن عليه .

وأبْيَن علامات الغفلة: البطَر والمرح، لأنهما يسهيان وينسيان التيقظ، وفي ترك التيقظ ترك الاستعداد لما بعد الموت .

قلت: فما التيقظ؟ وما الغفلة؟

قال : التيقظ: تقريب الأجل، ومراقبة الموت، والفكر فيما يصير إليه العبد من بعد الموت. ومن هذا يفتح لك باب العمل، فتبتدر إليه قبل أن يبتدر إليك الموت، وتستغنم كل ساعة من حياتك قبل انقضاء الأجل .

فإن رُزِق العبد الدوام عليه نبع من ذلك ينابيع الخير إن شاء الله عز وجل .

وأما الغفلة فطول الأمل، ونسيان ذكر المعاد إلا بالخاطر، ولا يدوم عليه العبد .

ولا يدوم عليها العبد إلا رمى بالخير وراء ظهره. ومنها يتولد التسويف، والوقوع في بحر الآثام .

كيف تكون القوة على اليقظة وترك الغفلة

قلت: فهل من شيء يقويني على التيقظ، وترك الغفلة؟

قال: نعم.. إخلاص الدعاء، ومصاحبة من يريد ما تريد، ومفارقة من لا يريد ما تريد. فإن صحبة من لا يريد ما تريد تضرك وأنت لا تشعر، وصحبة من يريد ما تريد تنفعك ولا تضرك وإن كنت لا تشعر .

وإنما الناس يؤتون من ثلاثة أشياء: من الغفلة، والغلبة، والجهالة.. ورُبَّ رَجل تجتمع فيه الثلاث خصال. وإن قلت: إني لا أعلم من أبرِّئه منها لكنت صادقًا .

وقال: كن ممن يُحِبُّ على الخير، ويُحَبُّ عليه، ولا تكن ممن يريد أن يُحَبَّ على الخير .

وقال: كل شيء ليس فيه نفع ولا مرفق فلا تمكِن فيه النية، وكل شيء فيه نفع ومرفق لا يجوز إلا بنية .

وقال: عجبت ممن ضعفت نيته في حسناته، وصحت نيته في شهواته. ولا يكون ذلك كذلك إلا من المخدوعين الممَوَّه عليهم، أو من الخادعين المموِّهين .

وقال: من صحح خصلتين فقد استحكم أموره كلها: من صحح لِمَ، ولَمْ يقل: لِمَ لَمْ أعمل؟ ولِمَ عملت؟ ولِمَ لا أعمل؟ ومن ضيع أو جهل فعلى حسب ذلك .

وقال: اعزل من أخلاقك ثماني خصال: التكلف في القول والعمل، والمراء، والمداهنة، والجريرة، والخبُّ، والخداع، والمزاح، والتغيُّظ .

وقال: التغافل عما يكره الله قسوة في القلب. وفي قساوة القلب ذهاب حلاوة الأعمال، وفي ذهاب حلاوة الأعمال قلة الطاعات، وفي قلة الطاعات قلة الشكر، وفي ترك الشكر فساد ما عملت، وحرمان ما طلبت، وانقطاع الزيادة .

وقال: إنك في زمان أسلم الناس فيه جائع مستوحِش من الناس، محزون مهموم .

وقال: الجوع يكسر النفس.. والشبع يهيج البطر.. وفي الجوع قوة الهم والحزن، وفي الهم والحزن قوة على الجوع.. والهم والحزن يقطعان الشهوة والرغبة .

وقال: الإنسان مقارف للتفريط، معتاد للبغي، شغوف بالتسويف، مجبول على الملل والنسيان، وهو موصوف بعدم العزم، مطبوع على الأمل، منعوت بالجزع عند الشدة، وبقلة الشكر عند النعمة، مولوع بالانخداع والاغترار .

وقال: معرفتك بعيبك وعيب غيرك سواء. فمن لم يعرف عيب غيره لم يعرف عيب نفسه. فإذا ظهر لك من عيوب الناس ما خفي عليك من عيبك، استدللت بعيوب الناس على عيبك. وإذا ظهر لك من عيبك ما خفي عليك مثله من عيوب غيرك، فلا توقع ذلك بغيرك حتى يظهر لك منه مثل ما ظهر لك من نفسك، وتجسس عليها، وفاتشها، وواقفها، وحاسبها، وخذها بأداء ما عليها أشد الأخذ، ولا تطلبن ذلك من غيرها .

فإذا ظهر لك من غيرها شيء فأمكن طلب العذر له فاطلبه. وأما نفسك فلا تطلبن لها عذرًا، وإن اعتذرت فلا تقبلن منها .

الإخلاص والرياء

وقال : أعمال البر كلها على وجهين: سِر، وعلانية. فلمن لم يقدر على تصحيح السر فيما يعمل من السر كان للتصحيح فيما يعمل من العلانية أبعد.. ومن قوي على تصحيحه في العلانية كان فيما يسر من أعماله أقوى .

وهكذا في القليل والكثير.. من لم يقدر على تصحيح النية في القليل من العمل، كان في الكثير منه أبعد .

وقال: الرياء على وجهين: رجل قد عمل أعمالًا من البر، فنال بها ثناء وجاهًا وقدرًا، وهو يريد فيما يستقبل من الأعمال الإخلاص. فمن لم يقدر على ترك الرياء فيما يستقبل، كان فيما عمل ونال به الجاه والقدر والمحمدة من الناس من الإخلاص أبعد .

وهكذا في كل شيء.. ترك ما لم تملكه أيسر من ترك ما قد ملكته .

النية بين الصدق والغفلة

قلت: فمن أحق الناس بصدق النية؟

قال: أشدهم لها حبًّا .

قلت: فمن أبعد الناس من صدق النية؟

قال: أزهدهم فيها.. وأزهد الزاهدين فيها أنساهم لها.. وأنسى الناس لها أجهلهم بها .

وقال: أول علامات الرياء: رضا الرجل بجهالة صدق النية في أعماله.. وأول علامات صدق الرجل: عنايته بمعرفة صدق النية، وإخلاص العمل .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «العمل بالنية ».

وقال: «أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية ».

فما بال العبد يتعلم كيف يعمل، ويتحمل مؤنة العمل، فيعمل بما قد علم، ولا يتعلم كيف ينوي.. فيتعلم من العلم ما يعمل به، وما لا يعمل، ولا يتعلم صدق النية، لا فيما يعمل به ولا فيما لا يعمل .

يعيش ما عاش، ويموت إذا مات، ولم ينتبه لذلك.. والرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده الأئمة وأهل العلم والمعرفة يحذرون من الرياء، حتى إن بعضهم قال: أدخل البيت المظلم فأصلي فيه ركعتين لعلها تخلص لي.. وقال الثوري: «ما كنت أعتدُّ بعمل يراه الناس ».

ولو كتبنا في هذا الكتاب مثل هذا لاحتجنا إلى دفاتر .

فالذي قد عرف من الرياء ما جهله غيره، وعني به، واهتم له في ليله ونهاره، ولعل ما يُخدَع فيه ويُغلب عليه أكثر من الذي يصير إلى ما يريد منه. فكيف بالجاهل به، المعرض عنه؟

فرُب رجل يعمل عملًا، فهو يرى أنه فيه صادق، ولا يتبين صدقه في دعوى صدقه إلا بعد عشر سنين، وإن شئت قلت خمسين سنة، فما العشر والواحد

والخمسون والمائة إلا واحد .

قلت: مثل أي شيء، فقد جئت بالقول العظيم؟

قال: مثل الرجل يتصدق على الرجل بصدقة أو معروف يصطنعه إليه، ويزعم أنه أراد بذلك وجه الله، ولم يرد به جزاء ولا شكورًا، ثم بدت له أو لغيره قبل المصنوع إليه المعروف حاجة، فقضى حاجة غير الذي كان قد صنع إليه المعروف أو تصدق عليه، ولم يقضِ حاجته، فذكر صدقته عليه في نفسه، فوجد عليه، حيث لم يقض حاجته، وقضى حاجة من لم يتصدق عليه ولم يصنع إليه معروفًا. فتبين صدقه في ذلك الوقت من كذبه، ولعل ذلك بعدما صنع المعروف بزمان من الدهر .

أو رجل يكون صاحب عبادة خمسين سنة، يرى أنه صادق فيها، لا يريد بها جزاء ولا شكورًا في سره ولا في علانيته، فنابت نائبة، فكتبوا أسماء صلحاء الموضع الذي هو فيه وعبادهم، فلم يكتبوا فيه اسمه، أو كتبوه في آخرهم، وقدموا من لم يكن مثله في العبادة، فأنكر ذلك في نفسه، ووجد منه، حيث لم يجعلوه في أولهم، فتبين عند ذلك صدقه من كذبه في عبادته. ولو كان صادقًا لم يجد في نفسه، ولم ينكر ما صنعوه، وعده من كبير نعم الله عليه. ففي هذا وأشباه هذا بيان أنه أراد به جزاء وشكورًا .

وكل عمل لم يَتَنَبَّهْ له صاحبه ولم يمتحنه ولم يختبره ويفاتشه فهو ملتبَس، والملتبس لا تبين حقيقته إلا عند البلوى، والناس يحاسبون على قدر علمهم وجهلهم، بما عليهم ولهم، وعلى قدر ما أمروا به، ونهوا عنه .

علوم النجاة

جماع ما يجب من العلم

وثلاثة أبواب من العلم على الناس أن يعرفوا ما خفي منها وما ظهر: بابان فيما بينهم وبين الله تعالى، وباب بينهم وبين الناس .

فأما الذي بينهم وبين الناس فالنصح؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة». فيما خفي من الأشياء وفيما ظهر، وما قل وما كثر، للقريب والبعيد، والعدو والصديق .

والذي بينهم وبين الله تعالى: باب النية وتصحيحها، والإرادة في الأعمال، فيما خفي وما ظهر، وما قل وما كثر، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الأعمال بالنية ».

والباب الثاني: معرفة الرجل نفسه .

حقيقة النصح

وأما باب النصح فتكون نيته وسيرته ومذهبه في السر والعلانية: أن أمور الأمة كلها لو أجريت على ما في ضميره وسريرته لأحب أنها رَشَدَتْ أمورُها، وأطاعت ربها، وصار إلى كل واحد منهم حظه من الحق والعدل .

فإن كانت هذه سيرته في خاصته، وعلى هذا نيته في العامة، رجوت أنه في كل أمر جليل، ونعمة عظيمة، لا يعلم قدرها إلا الله تعالى .

وإن خالفت سيرته في خاصته وعامته هذا الوصف، فلا حظ له في النصح الخاص ولا العام.. وكان ما يدعي أنه يضمر وينوي في سريرته من نصح الخاصة والعامة مردودًا عليه، غير مقبول منه .

ولا نعرف في أبواب العلم حديثًا أجمعَ في الأشياء كلها من هذا الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة».. ولا أقرب ولا أقصد قصدًا، ولا أحسن في أعمال البر كلها حسنًا، ولا بطريق الصالحين أشد اتباعًا من هذا الحديث.. ولا أحوط في الحق والعدل، ولا أرضى عند الخاصة والعامة، وهو: أن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره للناس ما تكرهه لها .

والنصح أصله من أعمال القلوب، وفروعه من أعمال الجوارح.. فربما أجري بالقلب، ولربما لم يجر إلا باللسان، وربما لم يجر إلا بالقلب واللسان والجوارح .

آداب لا بد منها

وقال: إن الشيء يغلب الشيء، والشيء يشغل عن الشيء، والشيء يُنسي الشيء، والشيء يهيج الشيء، والشيء يزيد الشيء، والمحاسب نفسَه قد عرف هذا، وأدناه التيقظ، وأعلاه النسيان .

واعلم أن الشر شهوة، والخير كراهية، والشهوة سابقة على الكراهية، وغالبة عليها، حتى يجيء العلم والصدق فيزيلان الشهوة، ويجعلان الكراهة مكانها.. فمن لم يفقه ولم يفهم هذا حين يسمعه، لم يحس مراجعته سريرته، ولا يجيء على إصلاحها حتى يتعلمه ممن يحسنه، ويحسن وصفه. ولولا كثرة القول فيه لكتبناه .

وقال: نعم الصاحبان: الهم والحزن بأمر الآخرة.. ونعم الشغل المحاسبة.. وصاحب الهم والحزن والمحاسبة يجعل الساعة التي ليس فيها هم ولا حزن ولا محاسبة ساعة بطالة، وأقل قليل الغفلة عنده كأكثر الذنوب عند غيره .

ومن علامة اليقين في العبد إدامة الحزن فيه .

يا أخي.. ولو لم يحزن العبد إلا لما يكون فيما يستقبل من الأعمال من الجفاء والسهو والغفلة وقلة الصدق في فرضه ونافلته مثل الذي قد عمل، ولما يجد فيها من قلة الحياء والمراقبة، لكان جديرًا أن يحزن ويهتم .

ولو لم يحزن ويهتم إلا لأنه لو جاء من الأعمال بمثل أعمال الملائكة والجن والإنس والعالمين كلهم، لم يكن عنده علم في ذلك أنه في المقبول أو في المردود، ولا يدري أيقبل من ذلك كله مثقال ذرة أو يرد عليه، لكان ينبغي له أن يحزن .

ولو لم يحزن إلا لأنه لو قيل له: اختر من عمرك أي ساعة شئت لم تعص الله فيها لسبب من الأسباب لما كان يجد ذلك. لقد كان ينبغي له أن يحزن .

ولو لم يحزن إلا لأنه لو قيل له: هل تعرف ساعة واحدة من عمرك أديت إلى الله سبحانه فيها جميع ما أوجبه عليك كما أوجبه؟ لقال: ما أعرفها. لقد كان ينبغي له أن يحزن .

محاسبة النفس

النفس واختبارها في المعرفة والسلوك

قلت: أخبرني كيف أحاسب نفسي في معرفتها؟

قال : إن الأشياء تُعرف بالدلالات والعلامات والأمثال. وسأضرب لك في ذلك مثلًا يكون علمًا لما سألت عنه :

إن مثل الناس في جملتهم وفي تفرقهم بعد المعرفة بهم، والخبرة لهم، وتفاوتهم وتفاضلهم، مثل سفط موضوع في طريق، فيه قوارير مملوءة موكاة الرؤوس، يمر به الناس لا يدرون ما فيه . فعرض له من الناس عارض من المارة، فقال: لأكشفن عن هذا السفط فلأنظرن ما فيه. فكشف عنه فرأى قوارير مملوءة لا يدري ما فيها، فحل أوكيتهن كلهن، فبدا له من هذه رائحة المسك، ومن هذه رائحة العنبر، ومن هذه رائحة البان، ومن هذه رائحة الخلوف، ومن هذه رائحة الغالية، ومن هذه رائحة الياسمين، ومن هذه رائحة الورد، وسائر الطيب والأدهان .

ومن هذه رائحة الكبريت، ومن هذه رائحة النفط، ومن هذه رائحة القَطران، وما لا طاقة له بالقيام عندها من شدة نتن ريحها .

فالناس في جملتهم مثل السفط والقوارير.. وهم في معرفتهم والبحث عن أخلاقهم متفرقون على قدر القوارير .

ومَثَل السفط أيضًا في جملته مثلك أنت وحدك .. والقوارير أخلاقك وآدابك.. وريحها الطيب خير أخلاقك، وآدابك الحسنة المرغوب فيها، والرائحة المنتنة شر أخلاقك، وآدابك السيئة القبيحة .

ولا تُعْرَف النَّفْسُ حتى تُمتحَن وتُختبَر .

فاختبِر نفسك، حتى تعلم ما فيها . وإن أردت ذلك فعاملها بالموافقة لها، والمفاتشة لهمتها في وقت الهمة، وأحدَّ إليها النظر، حتى تعرف حلمك في

الوقت الذي عرض لك فيه سفيه فسَفه عليك، ليس في الوقت الذي وافق هواك .

واعرف تواضعك في وقت ما جفاك جاف، وأكرمك مُكرم، فإن فيهما الفتنة، فإن العبد ربما أظهر التواضع عند الكرامة ليزداد منها، وربما تواضع عند الجفاء ليثبت له بالتواضع عند ذلك منزلة بين الناس.. فتوقَّف عند ذلك كله، وفاتش الهمة .

واعرف صمتك عند الخوف من سقوط جاهك عند من لك عنده الجاه والقدر .

واعرف صدقك عند الحالة التي يتصنع ويتزين في مثلها المتزينون والمتصنعون .

واعرف نصحك عند حبك لنفسك ولصديقك وعدوك، حتى تعلم: هل تحب لغيرك ما تحب لنفسك أم لا؟

واعرف صبرك عند ترك شهوة قد ملكها، هل تستطيع تركها على ذلك أم لا؟

واعرف ورعك عند الحالة التي استمكنت منها، هل تستطيع الوقوف عندها إذا التبست عليك أم لا؟

واعرف عقلك عند ترك ما لا نفع لك فيه في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ثواب لك فيه عند الله تعالى، هل تستطيع ترك ذلك أم لا؟

واعرف أمانتك عند هواك في الوقت الذي تهواه، هل تضبط أداء أمانتك في ذلك الوقت أم لا؟

واعرف طمعك في وقت هيجان رغبتك، هل تستطيع عند ذلك الإياس أم لا؟

فإن كنت في هذه الحالات والأوقات محمودًا فما أحسن خيرك، واحمد الله.. واسأله الزيادة من فضله، وامضِ فإنك على سبيل الاستقامة، وطريق المحبة، ومحجة الإيمان .

وإن كنت في هذه الحالات مذمومًا، فأخلاقك وسيرتك أولى بك أن تصلحها، فإن فيك فسادًا عظيمًا، ولست على سبيل الاستقامة، ولا على طريق المحبة، ولا محجة الإيمان .

فاتَّق الله.. وراجع مفاتشة نفسك، وإصلاح فسادها .

قلتَ: يجيء مني في بعض أحوالي ما أمقت نفسي عليه، وتشتد عليه ندامتي .

قال: مقتك لها من معرفتك بها، وندامتك عليها دواؤها.. فإذا نظرت إلى عثرة غيرك فاذكر عثرتك ومقتك لنفسك، ولو أن مصلحة النفس ومنفعتها كانت فيما تهوى أو تشتهي، لكان الناس كلهم صالحين، ولكن جعل صلاحها فيما تكره، وفسادها فيما تحب وتشتهي .

أما إنها لا تكره الصلاح والخير، ولكن تكره المكروه الذي به تنال الصلاح والخير.. ولو أمكنها درجة الأبرار بأعمال الفجار لقبلتها.. فأما الشر فإنها تحبه، وتحب خصاله وطرائقه، وكل شيء منه .

ومن محاسبتك لها: أن تخلو بها، وترد عليها فعالها، فتقول: يا نفس.. إنك لا تقدرين أن تخادعي الله، ولا تغالبيه، فلا تقبلي مخادعة الشيطان، ولا مغالبته، ولا تبتغي هواك، فيُردِيك ويهلكك .

وإني لست أحملك على ما لا طاقة لك به، ولا علم لك فيه، وإني أراك تحب لنفسك ما تمقت عليه غيرك، وتكره لنفسك ما تحب عليه غيرك .

قمة الخداع النفسي وحقيقة التوسل بالصالحين

أراك تحب أهل التواضع والصدق والأمانة، حتى لو رأيت قبورهم وآثارهم لأحببتها فيما تزعم، وتكره خصالهم التي بها نالوا الحب منك.. حتى لو قدرت أن تكون في أعدى عدوك بعد أن تزول عنك لكان ذلك منيتك .

فإما أن تكون تريد مخادعة الله إذ علمت أنه يطلع منك على ذلك.. وإما أن تكون لا تحسن أن تطلب الخير .

يا أخي.. إن الجائع يحب الخبز، وإن العطشان يحب الماء، ولو جعل الخبز والماء بين أيديهما على مائدة، أو علق في أعناقهما، ما نفعهما علمهما بأن الخبز والماء معهما، ولا ينفعهما قربهما منهما، دون أن يأكلا من الطعام ويشربا من الشراب .

وهكذا أنت.. لا ينفعك علمك بالخير، ولا قربه منك، ولا حبك له، حتى يكون فيك، وتكون من أهله، بل لا أزعم أنك تحبه، ولكنك مخدوع أو مخادَع في دعواك أنك تحبه .

يا أخي.. هل رأيت عطشان استمكن من الماء البارد فلم يشربه إلا مدعٍ للعطش ليس بعطشان؟

أو هل رأيت جوعان وجد طعامًا قد أمكنه، فلم يأكله إلا مدعٍ للجوع ليس بجوعان؟

فما أبْيَن إبطال دعواك فيما تزعم أنك تحب الخير وأهله، إذا قست ما تحب من الدنيا بما تحب من الآخرة، لأني أراك إذا أحببت شيئًا من الدنيا أحببت ألا يكون له مالك غيرك.. هذا هو الحب الصادق بعينه.. فإذا أحببت شيئًا من أعمال الصالحين فيما تزعم فليس شيء أثقل عليك من أن تكون أنت صاحبه.. ولو كنت محبًّا له لأحببت ألا يكون أحد سبقك.. ولا يملك منه أكثر من الذي تملك .

يا أخي.. أما آن لك أن تمَل وتشبع من الكذب والاغترار بالله تعالى؟ أما آن لك أن تحب أن يكون اسمك يومًا واحدًا من جميع عمرك مع أسماء الصالحين المتواضعين، المخلصين الناصحين، الشاكرين الراضين، الصابرين المسلمين،

الواثقين المتوكلين، المفوضين الخائفين، المشتاقين العارفين، العالمين الموقنين .

بحقٍّ أقول لك: لو مات أحد من العجب كان ينبغي لك أن تموت مكانك، إذا نظرت فيما أنت فيه من إيثارك للدنيا، وإقبالك عليها، مع استيقانك بأنها لا شيء، ورضاك بترك طريق الصالحين، وأهل الخير، وصحبة محمد صلى الله عليه وسلم، ومجاورته في الجنة .

فلو كانت صحبته في الدنيا، ثم تركت الدنيا كلها، وآثرت صحبته، لكان الذي تركت حقيرًا عند الذي نلت، فكيف الصحبة في الجنة، مع دوام الملك في جوار الله، وجوار أحبابه، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.. في الحِبَرة والنعمة والسرور الدائم الأبدي؟

فراجع نفسك يا أخي.. وانظر ما في هذه المخادعة.. وما الذي قد غلبك، وغلب يقينك، أو ما هذه الخدعة التي دخلت عليك؟

وفكِّر فيما تصير إليه من موازنة عملك، وسؤال الله إياك عن مثاقيل الذر والخردل، وما فوق ذلك، ودون ذلك .

وفكر في سرعة انقضاء الأجل، وعليك بقصر الأمل، فلا تفارقه ولا يفارقك طرفة عين، لا في ليل ولا في نهار .

يا سبحان الله! كيف لا تدهش ولا يذهب عقلك تعجبًا من أمرك؟

فراجع أمرك.. وانظر ما يراد منك.. فإنما يراد منك إذا عملت عملًا أن تريد به وجه الله أو لا تعمله . فهل تكون أقل من هذا؟ هذا في نوافلك.. وأما فرائضك فإنك غير معذور في تضييع مثقال ذرة منها، حتى تعمل بما أُمِرت به، وتنتهي عما نُهِيت عنه.. وما كُلِّفت أمرًا لا تطيعه.. وما كُلِّفت ما لم يُكَلَّف به غيرك .

ويراد منك مع ذلك: أن تريد للناس الخير.. وإن لم ترد لهم الخير فلا ترد لهم الشر.. فهل تكون أقل من هذا؟ أو ترضى لنفسك أن الناس يريدون لك الخير، وأنت تريد لهم الشر؟

ويراد منك: ألا تجعل نفسك فوق الناس في نفسك.. لا بقلبك ولا بلسانك. أفتكون أقل من هذا؟ وقد دُعِيتَ أنت والناس إلى هذا، لا أنت وحدك .

المخادعون.. المتاجرون بالدين

وقال: أخبرني.. إن أنت خالفت هذا الأمر، وأردت بعملك غير الله، وأردت أن ترفع نفسك فوق الناس، أو لم تحب لهم ما تحب لنفسك، أتدرك أو تنال ما تأمل من ذلك؟

أوَلست تعلم أنك أبعد ما تكون من الله إذا كنت كذلك؟

ومع هذا لا أراك تطلب الدنانير والدراهم فتنتفع بها، وترفق بها في أيامك هذه، وإنما تطلب بذلك الثناء والجاه والقدر.. وقد اخترت سيرة تستوجب بها البغض ممن خالفك، وتستوجب البغض أيضًا ممن وافقك عليها لو ظهر من أمرك ما خفي، ولا بد من أن يظهر يومًا ما .

وقال: الصبر ما ترك للناس عذرًا ولا حجة.. فمن لم يلق الله بما أمره بحلاوة الرضا، فليلقه بالصبر، وكراهته، ومن لم يلق الله ببغض ما نهاه عنه، فلا يلقاه بالحب له، بل بالصبر، فما ترك الصبر للناس حجة .

وقال: من القليل ما يعتبر به الكثير.. وإن أهل الدنيا إذا أرادوا أن يعملوا شيئًا بدأوا بالطلب، فطلبوا أداة ما يعمل به ذلك العمل، وإلا فلا سبيل لهم إلى ذلك العمل البتة .

ولو اجتمع أهل الدنيا كلهم، ومعهم أداة كل صناعة، هل قدروا أن يثقبوا إبرة إلا بأداتها التي هي أداتها؟ وهكذا جميع الأشياء .

هل رأيت بيطارًا قط قدر على صناعته بأداة خياط؟

أو قدر الخياط على صناعته بأداة البيطار؟

وهكذا كل عمل.. لا يقدر الحداد على عمله بأداة النجار.. ولا النجار بأداة الإسكاف .

وهكذا أعمال الآخرة.. لا يقدر عليها إلا بأداتها.. وأصل أداة أعمال الآخرة: العلم والمعرفة والاعتبار، فإنها من دلالات الأداة .

حب الدنيا رأس كل بلاء

ويُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: «حبك الشيء يعمي ويصم ».

ويُروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة ».

وأنفع ما عالج به المؤمن في أمر دينه: قطع حب الدنيا من قلبه، فإذا فعل ذلك هان عليه ترك الدنيا، وسهل عليه طلب الآخرة.. ولا يقدر على قطعه إلا بأداته .. أما إني لا أقول : أداته الفقر، وقلة الشيء، وكثرة الصيام والصلاة والحج والجهاد، ولكن أصل أداته: الفكر، وقصر الأمل، ومراجعة التوبة والطهارة، وإخراج العز من القلب، ولزوم التواضع، وعمارة القلب بالتقوى، وإدامة الحزن، وكثرة الهم بما هو وارد عليه .

وما أكثر من يعمل هذه الأعمال التي وصفنا وحب الدنيا في قلبه زائد، وكثير من الناس من لا يكثر من هذه الأعمال وحبه للدنيا في نقص.. لأنه أخذه من وجهة: أن يلزم نفسه الفكر، ويقصر عليه من الأمل، ولكن الأشياء من حيث أباحها الله، فيضعها حيث أمره الله، ويلزم قلبه ذكر قرب مفارقتها، ومفارقة ما فيه وما يصير إليه من الشدائد، من القبر، والوقوف بين أيدي الله عز وجل، وطول الحساب، ولا يدري في أي الصنفين عدده، ولا في أي الزمرتين اسمه، أفي الذين يحشرون إلى الجنة زمرًا، أم في الذين يحشرون إلى جهنم وردًا .

وتفكر في ذنوبه التي لو أخذ أهل الدنيا بذنب منها لهلكوا.. وطول خلود أهل النار في النار .

وأشد من ذلك غضب الله على أهل النار .

ولما يخاف أن يفوته من رضا الله عن أهل الجنة .

ويقل الفكر في الدنيا وفي نعيمها. فإن القلب مع الفكر يحيا إن كانت الفكرة في الآخرة، ويموت إن كانت الفكرة في الدنيا .

وقال: وما على العبد أن يعزم على أن يجعل حظه من بقية عمره في الدنيا ما كان من جاه أو ثناء أو محمدة من الناس أو قدر عندهم، وما كان من فضول النعمة فيها، فيعزم على أن يجعل ذلك كله لأعدى عدو له، ولأحسد حاسد له، لا يقسم على أقاربه وأصدقائه منها شيئًا، بعد أن يرجو أن يكون ذلك كله فكاكه

من النار، حتى لو دُعي إليه، وحبس في الحبس الضيق ليقبله لم يقبله، واختار الحبس عليه، ولحَذَرَهُ ونَفَرَ منه، كما كان يطلبه قبل ذلك .

فلعمري لو لم يكن فيه إلا ما يرجو أن يدرك به صلاح ما أفسد فيما مضى من عمره فليصلحه، وليتخلص مما مضى، ويجعل الحزن والهم وقلة ملاقاة الناس عُدَّة له، مع الدعاء والتضرع، ويجعل الموت نصبَ عينيه، ويستعين بسرعة الخروج من الدنيا، فما أهون عند من نزل منزلًا وهو يريد الارتحال منه تركه لجاره، وما أقل شفقته عليه .. وما أشفق من نزل منزلًا وهو يريد المقام فيه، وأحرص على عمارته .

جماع صلاح النفوس

وقال: إن الناسك إن لم يقبل الحكمة ولا الموعظة ولا النصيحة من العدو والصديق، والسفيه والحليم، فنُسكه نُسُك الملوك .

قلت: ذكرت شيئًا ينسي شيئًا، فمثل أي شيء هذا من الأشياء؟

قال: مثل الشبع، فإنه يهيج الشهوة، ويورث القسوة، والبطر، والثقل، والنوم .

ومثل كثرة الكلام، فإنه يقسي القلب، ويقل البهاء والمهابة، ويُعْقِم الحكمة، ويكثر السقط .

ومثل طول الأمل، فإنه ينسي الآخرة، ويذكِّر الدنيا ويحسنها، ويحببها إليك، ويورث الحسد والتسويف، ويقوي الهوى، ويكثر الشهوات .

وفي هذا ما تستدل به على أضداده.. فإذا فكرت فيه عرفت من الأشياء ما يورث الخير، وما يورث الشر، وكل شغل يشغل عن غيره من الأشغال، لأن القلب واحد، لا يمكنه أن يشتغل إلا بشيء واحد .

الإرادة والصدق والهوى

اتفاق الهوى والصدق على عمل البر

قلت: الصدق والهوى متفقان على عمل البر .

قال: إن الله قادر على أن يسخر الهوى للصدق.. وإن كان فقليل.. والذي يعرف هذا القليل في الناس هم قليل.. والذي يجهله كثير، لأن الإرادة للعمل قبل العمل، والهوى والشهوة مما يلي العمل، والنية والصدق من ورائهما .

فكلما أراد العبد أو همَّ بالعمل من قريب أو بعيد، ابتدر الهوى والشهوة والنية الصادقة فيهما إلى القلب بذكر ما يُرجى وما يؤمل من مثل ذلك العمل من حاجات الدنيا وشهواتها، ومنافعها ومرافقها ولذاتها، وما يؤنس بمثله من الأشياء، وما حَسُن موقعه من الناس، وذِكرِهم له بالثناء والمحمدة والقدر والجاه والرفعة والرئاسة .

والإرادة الصادقة بعدُ غائبة، وما دامت غائبة فالقلب يقبل هذه الأشياء، لا يرد منها شيئًا لأنه لا بد أن يكون للقلب أمل في هذا العمل الذي أراده وهمَّ به، والإنسان أكثر شيء نسيانًا، وأكثر النسيان في ذلك الوقت، لأن هذه الأشياء التي جاءت بها النفس والهوى إلى القلب مما ذكرنا من الثناء والمحمدة والرفق والقدر والجاه والرئاسة والمنزلة كلها مما يتحلى به القلب ويشتهيه، ويرغب فيه، فلذلك تكثر الغفلة والنسيان للإرادة الصادقة .

ولو كان مكان الذي يستحليه القلب ويشتهيه مرارة وكراهية، لما كان يقبل النسيان والغفلة، ولكن حيث جاءت الموافقة سكن القلب إلى هذه الخلال .

فمن شاء الله عز وجل أن ينعم عليه حتى تكون الإرادة الصادقة أمام الهوى وشهوة النفس، وحتى يريد بالعمل وجه الله، والدار الآخرة، ففي هذا يكون شغل القلب عند ذلك، وفيما يؤمل فيه من رضا الله عز وجل وثوابه، وما جاءت به النفس والهوى مما ذكرناه لم يقبله القلب، ورده عليهم. ففي هذا أعظم النعم، وعلى صاحبه أكثر الشكر .

سبق الهوى على الإرادة الصادقة في العمل

وإن كانت النفس والهوى والشهوة سابقات على الإرادة الصادقة، فلا بد لصاحبها من الوقوف والنظر والفكر، حتى يُنقي قلبه مما عرَّضت به النفس والهوى والشهوة، ويجعل إرادة الله مكان ذلك وأمامه، فيقبله القلب، ساءه أو سره، ثم يتحفظ ويتعاهد، حتى يختم العمل الذي افتتحه بالإرادة الصادقة بمثل ذلك، وبعد فراغه من العمل، ما دام الروح في جسده .

واعلم أن إحكام هذا أعز وأشد من نقل الصخر، وركوب الأسنَّة، إلا من رزقه الله إحكام ذلك، والعناية به، مخافة تلف نفسه، وإحباط عمله، لأن العدو مُلِحٌّ مُجِدٌّ محتال له في إدخال الآفات التي تفسد الأعمال، فهو يرصُده قبل دخوله في العمل، وبعدما يدخل فيه، وبعدما يخرج منه .

عروض الهوى بعد تقديم الإرادة الصادقة

فإن قدم الإرادة والنية الصادقة الصحيحة التي لا سقم فيها، ودخل بها العمل، ونفى الهوى، ودفع النفس، وخالف الشهوة، وجاهد العدو، فإن صده بعد دخوله في العمل، فعرض له بما ذكرنا من الآفات التي تفسد الأعمال. فإن قبلها حتى يختم العمل بقبولها، فسد عليه أصله الصحيح الذي كان قد أصَّل، ودخل بها في العمل .

وإن هو لم يقبل ما عرض له به في العمل، ونفاه ودفعه لم يضره ذلك شيئًا .

وإن هو قبله، ثم انتبه قبل أن يفرغ من العمل، فندم ورجع وتيقظ، وأزال الغفلة، ثم ختم العمل بالندم، لم يضره ذلك شيئًا .

وإن هو ختم العمل بالصدق والصحة، فإنه يطالبه في ذلك العمل ليفسده عليه ولو بعد حين .

فينبغي للعبد أن يتقي الله، وأن يخلص له العمل، ويقدم له النية أمام كل عمل، وبعد كل عمل، إلى الممات، حتى تكون أعماله كلها لله وحده، ولا يطلب الثواب إلا من الله وحده، ويجاهد هذا العدو المسلّط، ويخالف هذا الهوى، ويكابد هذه النفس، ويتقي هذه الشهوة الهائجة في قلبه، ويعلم من يعامل، ولمن يعمل له، وثواب من يطلب .

ويعمل العمل بهيجان الرغبة في ثواب الله تعالى، وهيجان الرهبة من عقاب الله تعالى، وأنه إن عمل على ذلك عمل العمل بشهوة وخفة ومحبة، لما قد هاج من رغبته ورهبته، فأزال عنه ما ذكرنا من الآفات، التي تفسد الأعمال .

فإذا عمل على ذلك فكأنما جمع له الهوى والصدق جميعًا، ولا يبالي إذا كان هكذا موافقة الهوى أو مخالفته، وما عليه من مخالفة الهوى إذا سلم من شره، وكان ذلك لا يضره، فكأنما وافقه .

فلا بد أن يوقف العبد.. ويسأل عما عمل.. ولمن عمل؟ وماذا أراد بما عمل؟

الرياء والإخلاص وأحكامهما

والإرادة إرادتان: إحداهما للدنيا، والأخرى للآخرة .

فالصدق والإخلاص إنما هو إذا أراد العبد بعمله وجه الله، وليس فيه شيء من معاني الدنيا .

والرياء إنما هو: أن تكون الإرادة كلها للدنيا .

فمنه ما يكون العبد يريد بعمله في أصل العمل المحمدة والثناء .

ومنه ما يكون العبد يريد به في أصل عمله وجه الله والدار الآخرة، ويحب أن يحمد بعمله، ويُثنى عليه .

ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله وحده، والدار الآخرة، فإذا دخل في العمل على ذلك الإخلاص عرض له بعض ما ذكرنا من الآفات فقبلها، وأحب أن يحمد على عمله، وأن يتخذ به منزلة عند أحد من المخلوقين .

ومنه ما يكون العبد يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة، ويختم عمله بذلك، ويطالب بالآفات بعد الفراغ من العمل ولو بعد حين، حتى يخبر بذلك العمل يريد أن يحمد عليه، ويتخذ به الجاه والمنزلة، عند المخلوقين.. فهذا أسهل من جميع ما ذكرنا .

والناس في هذا مختلفون .

ففرقة تقول : هذا من الذنوب، ولا يفسد العمل، لأن العمل قد مضى وختم بالصحة، فلا يفسد بعد الخاتمة، وما لحق العبد بعد ذلك فقبله من هذه الآفات، فللّه في ذلك على العبد مقام ومطالبة، والعمل لا يبطل .

وقالت فرقة: يبطل العمل، ولو بعد حين إذا قبل الآفة، وأحب المحمدة، وأدخل المخلوقين في عمله، وأحب عندهم الثناء والمنزلة والجاه .

العمل الخالي من ذكر الإرادة الصادقة

قلت: فأخبرني إذا هم العبد بعمل البر، وعمله وفرغ منه، ولم يذكر قبل عمله ولا بعده إرادة الله والآخرة وكان ناسيًا ساهيًا عنها، أليس هذا عملًا بلا نية ولا صدق؟

قال: بلى .

قلت: وكيف يكون عمل من أعمال البر مما يراد الله بمثله بلا نية ولا صدق، وقد عمله العبد؟

قال: إذا لم يكن الصدق، ولم يقدم النية، فليس بشيء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنية».. فإن قلت: إني نسيت النية، وسهوت عنها، فهذا إقرار، وليس لك حجة. وإنما أنساك النية الدنيا، وإرادتك الغالبة لها .

أوَليس بلية آدم كانت من النسيان وقلة العزم؟ أوَلا تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ .

وأنا أقول: إن العمل لا يكون عملًا كما أمر الله أن يعمل إلا بصدق نية، وصحة إرادة، وتقديمهما أمام كل عمل، فهذا عندي هو العمل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الأعمال بالنية ».

وجوب العناية بجواهر الأعمال بأسمائها

واعلم أن وقوفك عند افتتاح العمل، وذكر الصدق، وتصحيح النية والإرادة، ونفورك من الرياء، وذكرك الجنة والنار، ليس يزيد في صدقك، ولا ينقص من ريائك، حتى تستعمل التقوى، وتقدم النية، وتصدق في الإرادة .

فلا تفتر في ذلك الوقت، فإن الإنسان يحب اسم الخير، ويكره نفس الخير، ويكره اسم الشر، ويحب نفس الشر .

فما أحب إلى الإنسان اسم الصدق، وما أثقل عليه نفس الصدق، ما أشد بغض الإنسان لاسم الرياء، وما أحبه إليه، وأخفه عليه، وأشد استعماله له .

فلا تتساهل في ذلك الوقت عن ذكر النية، فإن الصدق والنية اسمان، ونفسهما الإرادة الصادقة، وإن النفس والهوى يجتثان ثمرة العمل بحلاوتهما .

واعلم أن لذتك فيما تجد من حلاوة طعم الحلوى وغير ذلك إنما تجدها عند أكلك إذا أكلتها.. وحلاوة الهوى والشهوة في الفكر إذا تابعته على ما تريد، ليس له طعام ولا شراب، إنما لذته من الأشياء أن يتابع في فكره وأصله .

واعلم أن لذة الرياء وحلاوته لذة تخالط القلوب، وتجري في العروق، فاحذر ذلك في ابتداء أول العمل، وفاتش الهمة وتقص تصحيح الإرادة، وكن في ذلك كله مراقبًا لله وحده .

معرفة الصدق في نقل الإرادة من الرياء إلى الصحة

قلت: إذا أردت أن أعمل العمل، وقفت قبل الافتتاح، فراجعت نيتي وإرادتي، فرأيت الرياء قد سبق الصدق، ورأيت الصدق غائبًا عني، فأردت أن أنقل الإرادة بحقيقتها إلى الصدق والصحة، وحسن النية، وأن أتقي الهوى، بحليته ورياءه وشهوته، فمتى أعلم أني قد فعلت ذلك، وأتيت منه على ما أردت، وقد ذكرت أن ذكر النية والصدق لا ينفعني حتى يكون بتحقيق الإرادة؟

قال: لأنهما لا يجتمعان في قلب واحد. ثم قال: ربما اجتمع اسماهما، ولا تجتمع نفساهما.. فإذا لم ترد النفس وتشتهي ما كنت أنت تريده، وتشتهي من إرادة الله تعالى بذلك العمل والدار الآخرة، فقد علمت أن هذا قد حضر، وذاك قد غاب، كما كنت تعلم أن الرياء حاضر، والنية غائبة .

وإن اشتبه عليك الذي وصفت لك، فانقض الأمر كأنك لا تريد أن تعمله البتة، واصدق فيه، فإن علمت أنك قد صدقت بنقضك له، فابتدئه من الرأس. فإن وجدت من نفسك الرضا والسكون بنقض العمل، والترك له فاعلم أنه علامة حضور الصدق، وغيبة الهوى والرياء. وإن وجدت كراهية النقض والترك فاعلم أن الهوى بعد فيه .

قلت: اضرب لي فيه مثلًا يكون أبين من هذا .

قال: مثل رجل همَّ أن يتخذ طعامًا يدعو إليه أقوامًا، فراجع نفسه وعزمه، فإذا هو يريد أن يدعو فلانًا لشيء كان وافقه منه. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر يريد ضربًا من الاستطالة، وأن يستخدمه ويخضع له. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليستعين به على ظلم. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليصيب منه عرضًا من الدنيا. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر فيحمده ويثني عليه، ويبسط ذكره. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر ليجالسه ويزاوره، ويدع مجالسة ومزاورة غيره. وإذا هو يريد أن يدعو الآخر لحسن لقاء يلقاه به. وأشباه ذلك مما ليس لله سبحانه وتعالى فيه شيء، وإنما هو كله للدنيا .

فلما استبان من نفسه هذا، ولم تكن إرادته وجه الله، وما يرجو من ثواب الله على طعامهم، قال في نفسه لما تبين له ذلك: لا.. ولكني أترك الإرادة الأولى، وأحضر إرادة ثانية أريد بها وجه الله تعالى وحده والدار الآخرة .

ثم قال: فلعلي أخدع في هذا وأنا لا أشعر .. ولكني أدعو مكان هؤلاء قومًا آخرين أقدم فيهم النية والإرادة الصحيحة أمام الطعام، أو لا أدعو أحدًا .

فإن رأى نفسه عند ذلك تنازعه إلى أن يدعوهم، فكراهية النفس لترك دعوتهم، ومحبتها لدعوتهم، علامة أنه غير صادق، وأنه مخدوع .

وإن سكنت إلى الترك، ورضيت به، فهو من علامة الخير . فينبغي له حينئذٍ أن يعمله، وأن يمضي فيه، فإن شاء دعاهم، وإن شاء دعا غيرهم بنية جديدة .

كثرة الخطأ، وخفاء الخداع في هذا الباب

وإن الخداع والغلط، والخطأ والعمد، والنسيان والفتن والبلايا في هذا الباب من إخلاص العمل، وصدق الإرادة، وتقدم النية شديد.. والبلاء فيه كثير ..

ولشدته أعطي العبد على العمل القليل بالإخلاص الثواب الكثير .

وآفاته أكثر من أن يضبطها الكتاب، وصحته أعز من أن يبلغها الآمن المخدوع المغتر بظاهر الكتاب، وظاهر العلم، وإنما يدرك ذلك كله ويعرفه أهل العناية بأنفسهم، الذين خافوا على أعمالهم أن تبطل، وخافوا على أنفسهم أن تتلف .

ولا ينبغي لعاقل أن يفتر عن مفاتشة همته، ومحاسبة نفسه، ونقاء ضميره، ومراقبة الله سبحانه وتعالى عند كل عمل يريد أن يعمله، وإلا فهو مخدوع .

والله نسأل التوفيق والفهم والعزم الصحيح، والإرادة الصادقة .

واعلم أن السهو والغفلة عن هذا العلم الذي به تصفو الأعمال جهل شديد، واغترار، وقلة عناية بالنفس، وقلة مبالاة باطلاع الله تعالى على فساد العمل .. ومن بين هذه الصفات المذمومة التي ذكرناها نتجت الهلكة .

ونحن نسأل الله سبحانه الرشاد والسداد، والعون على القيام بما قد علمنا، والشكر على ما قد فهمنا، ونسأله أن يزيدنا من فضله.. إنا إليه راغبون .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

دلائل وعلامات

بسم الله الرحمن الرحيم.. يروى عن بعض الحكماء أنه قال :

إذا ظن بك الناس أنك تعمل عملًا من الخير ولست تعمله، أو كنت تعمل عملًا من الخير وظنوا أنك تعمل أكثر منه ورفضت أن يطلعوا على حقيقة عملك، فأنت ممن يحب أن يُحمد بما لم يفعل .

وإن أحببت أن يطلعوا عليه فأنت تحب أن تُحمد بما قد فعلت .

وقال: علامة حب الله: حب جميع ما أحب الله .

وعلامة الخوف من الله: ترك جميع ما كره الله .

وعلامة الحياء من الله: ألا تنسى الورود على الله، وأن تكون مراقبًا لله في جميع أمورك على قدر قرب الله تعالى منك، واطلاعه عليك .

ومن علامة حسن الظن بالله: شدة الاجتهاد في طاعة الله .

وعلامة الناصح لله: شدة الإقبال على الله، وفهم كتابه، والعمل به، واتباع سنن نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يحب أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى .

وعلامة النصح للناس: أن تحب لهم ما تحب لنفسك من طاعة الله تعالى، وأن تكره لهم ما تكره لنفسك من معصية الله تعالى .

وعلامة الصبر: ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحد من المخلوقين شيئًا .

والصبر هو: الصبر على الطاعة.. والصبر عن المعصية.. والصبر على كتمان المصيبة.. وهو من كنوز البر.. والصبر على كتمان الطاعة.. والصبر: حبس النفس عن ذلك كله .

ومن علامة الرضا عن الله: الرضا بقضاء الله. وهو: سكون القلب إلى أحكام الله، والتفويض إلى الله قبل الرضا، والرضا بعد التفويض .

ومن علامة صدق الرجاء: شدة الطلب، والجد والاجتهاد ليدرك ما رجا .

ومن علامة معرفة النفس: سوء الظن بها .

ومن علامة الشكر: معرفة النعمة بالقلب أنها من الله لا من غيره.. والحمد عليها باللسان.. وألا يستعان بها على شيء مما يكره المنعم .

قلت: فما تصديق معرفتي هذه؟

قال: القيام بالمكافأة بها، وإن كانت لأنكأ، ولكن إعطاء المجهود في شكرها .

ومن علامة معرفة الدنيا: الترك لها، والزهد فيها، والوحشة منها، وممن ركن إليها وأحبها وآثرها وعظم قدرها .

ومن علامة معرفة الآخرة : هيجان الرغبة فيها، وشدة الشوق إليها، والأنس بكثرة ذكرها، ومؤانسة من صدق في العمل لها .

ومن علامة العقل: حسن التدبير، ووضع الأشياء مواضعها، من القول والفعل. وتصديق ذلك: وإيثار الأكثر على الأقل .

ومن علامة العدل: ألا تجعل في نفسك حكمين، فتحكم لنفسك بحكم، وللناس بآخر، حتى يكون الحكم في نفسك وفي غيرها حكمًا واحدًا، وإنصاف الناس من نفسك .

ومن علامة التواضع: ألا يدعوك أحد إلى حق إلا قبلته ولم ترده، ولا ترى أحدًا من المسلمين إلا رأيت نفسك دونه .

والناس يتفاضلون في المعرفة بالإيثار والرضا والشكر والحب والثقة والخوف واليقين والصبر.. وأدنى الدرجات: الصبر.. وأكثرها كلها: اليقين .

ومن علامة حسن الخلق: احتمال الأذى في ذات الله، وكظم الغيظ، وكثرة الموافقة لأهل الحق على الحق، والمغفرة، والتجافي عن الزلة .

ومن علامة سوء الخلق: كثرة الخلاف، وقلة الاحتمال .

ومن علامة الألفة: قلة الخلاف، وبذل المعروف .

وعلامة الصدق: إرادة الله وحده بالعمل والقول، وترك التزين، وحب ثواب المخلوقين، والصدق في المنطق .

وأطيب العيش: القناعة. والعلم: خشية الله. وهي إيثار الآخرة على الدنيا، ومعرفة الطريق إلى الله .

وصلاح القلب: الرأفة والرقة .. وفساد القلب : القسوة والغلظة .

وألذ العيش: الأنس بالله .

والأنس اجتماع الهمة .

وأشر الشر الذي لا خير فيه، ولا قوام لخير معه: الكِبْر. وخير الخير الذي لا شر فيه: التواضع، وهو: أن تضع نفسك دون الناس .

والكِبْر: أن ترفعها فوق الناس. وما خير لعبد آثر على التواضع شيئًا .

والحزم: الفرار من كل موضع فيه محنة .

والصبر: مخالفة المحبة. ولا يصعب مع قوة الصبر شيء من العبادة حتى ترتفع من درجة الصبر إلى درجة الخوف، ثم من درجة الخوف إلى درجة المحبة .

وكما لا يطيب لعبد شيء أعطيه من الدنيا إلا بالقنوع، كذلك لا يطيب له عمل الآخرة إلا بالخوف والمحبة. فإذا صار العبد إلى ذلك سقطت عنه مؤنة الصبر.. وتنعم بالخوف والشوق .

نعيم الخوف والشوق

المعرفة ونعيم الخوف

قلت: فبأي شيء ينتقل من درجة الصبر إلى درجة النعيم؟

قال: بحسن المعرفة .

قلت: ممَّ حسن المعرفة؟

قال: افتقار القلب إلى الله، واقترابه منه، ومن دار الآخرة، حتى كأنهما رأي العين.. ويجعل الذنوب التي سلفت منه فيما بينه وبين الله نصب عينيه، ويجعل النعمة التي قد أنعم الله عليه بها، والتي لا يحصيها ولا يقدر على شكرها في إقرار قلبه بذلك . وإجلال الله وتعظيمه وقدرته، ووعيده، وأهوال القيامة وما بعدها وما قبلها، من البرزخ والموت .

فإذا استقر ذلك في قلبه، وسكن القلب إلى ذلك كذلك، أنار القلب وعمر بعد الخراب، وأضاء بعد الظلمة، ثم لانت المفاصل عند ذلك، وتوثبت الجوارح إلى الطاعات، فعند ذلك تسقط مؤنة الصبر، ويصير في درجة الخوف والمحبة للعبادة، وعند ذلك يجد حلاوة ما هو فيه، فتلك العبادة بحسن المعرفة .

فلا يزال كذلك حتى يعرض له من دواعي الدنيا، ووساوس النفس ما إن مال إليه قطعه عن تلك الحلاوة، ورده إلى درجة الصبر .

ولساعة واحدة من تلك الساعات خير من أيام كثيرة من أيام الصبر، لأن فيها الخوف، وفيها الحب، وفيها الشكر، وفيها الندم، وهو: التوبة، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير الدنيا، والأنس بالله .

فلا يلحق صاحب هذه الدرجة صاحب الصوم الكثير، والصلاة الكثيرة، والحج والغزو، وهكذا العمل إذا كان بالمعرفة القوية .

كيف غفل الناس عن هذه الدرجة

قلت: فأين المريدون عن هذه الدرجة؟ ولمَ لا يكون اهتمامهم وعنايتهم بها أكثر من عنايتهم بغيرها من الدرجات؟

فقال: هذه الدرجة في الدرجات كالجوهرة في الأشياء، واللؤلؤة الفائقة في ألف لؤلؤة، والجنس واحد، وإنما قلَّ أهل هذه الدرجة وعزُّوا، لأن من الأشياء ما صعوبته في المسلك إليه، فإذا صرت إليه صرت إلى سهولة ورخاء وأنس.. ومن الأشياء ما سهولته وشهوته في طريقه، وصعوبته وشدته في نفس ذلك الشيء إذا صرت إليه .

والعامة يعنون بالشيء الذي فيه السهولة، فإذا صاروا إلى الشدة والمرارة كاعوا، وتحيروا وخسروا، وقد كانوا قبل ذلك يسرعون إليه لما فيه من السهولة .

أوَلا تراهم يطلبون العلم، فإذا صاروا إلى استعمال العلم والورع لا ترى من يستعمله، ولا من يريده إلا الواحد بعد الواحد؟

أوَلا تراهم يتعلمون السير، وفضائل الجهاد، فإذا صاروا إلى شروط الجهاد لا ترى من يقوم بعمله؟

هذه الدرجة شديدة في الطريق إليها، ولا ترى في طريقها إلا الواحد بعد الواحد من الكثير.. فلذلك قل أهل هذه الدرجة، وكثر طلاب غيرها من الدرجات، لأنها هي الدرجة التي استعبدت العباد، وهي درجة الصدق وصار علمها مهجورًا، وصار الناس إنما يريدون من العمل ما خف محمله، وقلَّت فيه مفاتشة الهمة، ونقاء الضمير، والتوقف، ومحاسبة النفس، ومخالفة الهوى، ومجاهدة العدو .

واعلم أن رضا العبد بالحالة التي هو عليها مقيم ضعف وبلية نزلت به .

المحب مسارع إلى القربات

وقال: المحب ينازع إلى القربة أبدًا ما عاش.. والخائف يتعرض للنجاة.. فلما استيقن بالرحيل صار مخادعًا لنفسه، ومؤثرًا لما قدم على ما خلف .

ولا أعلم في الناس شيئًا أقل من الغضب لله، والرضا لله، والحب لله، والبغض لله، وأقل من ذلك الرضا عن الله تعالى، والتسليم لأمره، وتفويض الأمور إلى الله .

وأكثر سلامة الناس من الشر بالصبر.. وأكثر طلبهم للخير بما وافق الهوى.. والإنسان في أكثر النعم مخالف الشكر.. وأقرب خصال الخير من الله أثقلها على العبد.. ولو قبلها بشكر كان أقربها إلى الله أحبها إليه .

فهذا العبد يرجو رحمة الله باليسير من البر، كما يرجوه بالكثير من البر سواء.. ويخاف سخط الله باليسير من الذنوب، كما يخاف سخطه بالكثير من الذنوب سواء.. ولا يكون حسن الرغبة في كثير من الحسنات إلا كان في القليل كذلك .

وقال: إذا أردت أن تصلح من أمرك شيئًا فاشتد عليك، فخلِّ عن جميع أعمال البر من التطوع كلها.. واجعل شغلك كله فيه.. فإنك تُعان عليه إن شاء الله .

مراتب العمل لله

وقال: الناس يعملون على أربعة وجوه :

فأشرفها وأفضلها : قوم عملوا لله على التعظيم له، فحسنت أعمالهم، وكرمت فعالهم على وجه عظمته في صدورهم، وعظم قدره في قلوبهم، فلم يكن شيء أحب إليهم، ولا ألذ عندهم من شيء يتقربون به إليه .

وآخرون عملوا على وجه الرغبة، والحرص على جواره، فلم تكن لهم همة إلا ترك ما نهاهم عنه، لتعظيم ثوابه، وخافوا فوات خير ما عنده من عظيم ما أعد من الثواب لأهل ولايته .

وآخرون عملوا مخافة منه ومن عقابه، فكانت همتهم في الرهبة من العقاب قد حالت بينهم وبين الرغبة في الثواب. وكانت الأعمال منهم على وجه الفرار من العقاب، وليس يخطر الثواب على قلوبهم لعظم العقاب في صدورهم، ويقولون في أنفسهم: إن بلغتنا أعمالنا إلى الخلاص من العقاب لقد ظفرنا بالفوز العظيم .

فخرجت الرغبة من قلوبهم، من كثرة الرهبة، فما تخطر الجنة بقلوبهم من عظم العقاب في صدورهم .

وآخرون عملوا على وجه الحياء من الله سبحانه.. استحيوه في ليلهم ونهارهم، إذا غلقت الأبواب، وأرخيت الستور عليهم، لما أيقنوه أنه هو الذي يلي عرضهم ومساءلتهم .

فاستحيوا من كل قبيح يعملونه في سرائرهم، حتى كأنهم ينظرون إليه.. ولما استيقنوا بنظره إليهم قالوا: سواء علينا نظر إلينا أو نظرنا إليه.. وأيقنوا أنه أقرب إليهم من حبل الوريد .

فلما أيقنوا بذلك، حال يقينهم بينهم وبين مثاقيل الذر، وموازين الخردل، مما يكره المطلع عليهم. وكان الحائل بينهم وبين اعتقاد القلب على شيء مما يكره سيدهم: معرفتهم بأنه مطلع في ضمائرهم، وينظر إليهم في كل حركة

تكون منهم، وكل سكون، وكل خطرة، وكل طرفة عين، وكل همة، وكل إرادة، وكل نية، وكل محبة، وكل شهوة .

*

وأما نحن فلم يهيجنا على عملنا التعظيم له، ولم تهيجنا رغبتنا في عظيم الثواب، فنتقرب بحسن الفعال. ولم تدعنا الرهبة من العقاب إلى ترك مساوئ الأعمال، ولم يحل الحياء منه بيننا وبين قبيح الأعمال فيما بيننا وبينه .

فنسأل الله المنَّان الذي مَنَّ عليهم: أن يمُنَّ علينا بما مَنَّ به عليهم، وأن يهب لنا مثل فِعَالهم، فإنه فَعَّال لما يريد .

وقال: الصدق عند العبد على قدر إرادته، والشكر عنده على قدر موقع النعمة منه .

السلوك السلفي

ذِكْر الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم. يُروى عن بعض الحكماء أنه كتب إلى أخ له :

سلام عليك.. أما بعد.. فاذكر ما أنت عنه زائل، وعليه قادم، وإليه صائر، كذكر من نظر فاعتبر، وأخذ حذره فازدجَر، وتعوَّذْ بالله من موت القلب عن شدة العناية للسداد والرشاد، وحسن الاستعداد للمعاد .

فلو فكر العباد وعلموا أنهم لا يسعهم أن يردوا على الله إلا بما له فيه رضا، علموا أو جهلوا، وألا يطلع الله على ضمائرهم فيرى فيها شيئًا مما يكره، وأن يكونوا نادمين على ما كان منهم ما لم يكن فيه رضاه، مما علموا أو جهلوا، إذن لاجتهد من كان يخاف الله منهم بالغيب أن يكون مجهولهم معلومًا، ومعلومهم معمولًا به، وأن يكونوا نادمين على ما فات منهم من ذلك .

واعلم يا أخي أن الله سبحانه جعل نجاة العباد برحمته في المعرفة، ثم في الإرادة، ثم في ترك ما أمرهم بتركه، ثم في العمل بما أمرهم به، ثم في شكر نعمه التي أنعم بها عليهم قديمًا وحديثًا، ظاهرًا وباطنًا .

معرفة الله

فأول ما أراد الله تعالى من العباد: أن يعرفوه عن الوجوه التي تعرف إليهم منها، فإنه قد تعرف إليهم من خلقه للخلق، وتدبيره في الخلق، ومن قدرته على الخلق، وتكفُّله بأرزاق الخلق، وإماتته الخلق، وإحيائه الخلق، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله أحسن الخالقين .

إرادة الله بالعمل

وأراد منهم بعد المعرفة: أن يريدوه بكل ما عملوا من أعمال البر، ولا يروا غيره، ولا يطلبوا الثواب إلا منه، فلو كان يمكن أن يكون قبل المعرفة شيء لكانت الإرادة قبل المعرفة، ولو استُغني عن المعرفة بشيء لاستغنت الإرادة عن المعرفة .

فالمعرفة قبل كل شيء، وأصل كل شيء، ثم الإرادة، وهي منها. وهي: تحقيق الترك، وتحقيق العمل، والأخذ والإعطاء، والحب والكره في الأعمال كلها .

وهي ولية عقد منافع أهل الأعمال في أعمالهم .

شكر النعم

والشكر على قدر المعرفة، فمفتاح النعم وأفضلها كلها وأولها، هي نعمة المعرفة. ولا أعلم بعد نعمة المعرفة أعظم قدرًا من نعمة العقل .. ونعمة الإرادة نعمة يعسر مبلغ شكرها .

وآخر النعم نعمة الحكمة . فنسأل الله خاتمة خير، ونسأله أن يُعَرِّفنا جميع نِعَمه، وأن يُوزِعنا الشكر على ذلك، فقد ينال العبد بالمعرفة والإرادة من الخير والقرب من الله سبحانه وتعالى ما لا يناله صاحب العمل الكثير .

معرفة ما يحب الله وما يكره

وإنه ليس شيء أولى بالعبد بعد معرفة الله من معرفة ما يكره الله، وهو الذي نهاه عنه، وتقدم فيه بالوعيد، والزجر والتحذير .

ثم معرفة ما أحب الله وهو: الذي أمر به، ورغَّب فيه .

فأبلغ الأعمال إلى رضوان الله: مفارقة ما يكره الله، ثم مباشرة ما يحب الله تعالى، وما رغَّب فيه .

فانظر يا أخي، إذا أصبحت فلا يكن شيء أهم إليك من أن تميت خصلة تهواها نفسك مما يكره الله تعالى، فإنه يحيا لك مكانها خصلة مما يحب الله، ولك بعد ذلك التضعيف من النور الساطع في قلبك، والفهم .

واعلم يا أخي أن الدنيا منها حلال مباح، ومنها شبهات، ومنها حرام .

فإذا كان في قلب العبد عقدة متمكنة من عقد حب الحلال المباح، لم تنقطع عنه مواد نوازع الشبهات والمكروهات .

وإذا كان في قلبه عقدة متمكنة من عقد حب الشبهات والمكروهات، لم تنقطع عنه مواد نوازع الحرام. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من وقع في الشبهات فأوشك أن يواقع الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ».

فكل من تمكنت الشبهات من قلبه، واطمأن إلى أخذها، وقع في الحرام، لأن الشبهات أقرب إلى الحرام منها إلى الحلال .

قلت: فكيف يصنع الناس بمرافقهم وحوائجهم؟

فقال: إني لم أنهك عن كسبك وحوائجك، وما تحتاج إليه منها، وإنما أحذرك أَخْذَ ما لا تحتاج إليه منها. ونهيتك عن اعتقاد الحب لما تحتاج إليه منها، حتى تكون تأخذها من المباح وهي راغمة، وأنت عالِم بها، وبصغر قَدْرِها عند خالقها، إذ يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ .

وإذ يقول نبيه صلى الله عليه وسلم: «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء ».

واعلم أن المعتقد لحبها وهو عالم بها لا يؤمن عليه أن تستولي على قلبه، فتملكه، فيأخذ بعد الحلال الشبهات، وبعد الشبهات الحرام .

واعلم أن المعتقد لحبها وغير المعتقد يأتيان على حاجتهما. واعتقاد حب الدنيا من الحلال وهن في قلوب العارفين، ولا يزيد ذلك في رزق المعتقد، ولا ينقص من رزق الذي لا يعتقد المحبة .

واعلم أن العباد إنما أمِروا بالاشتغال بالعمل من الجهل، وبالعمل بالإخلاص، ولا تنال هذه الدرجة حتى تكون بحالة لو قدرت أن تترك ما تحتاج إليه منها لتركته .

آفة حب الجاه عند المخلوقين

وأما الشبهة الأخرى التي يكرهها الله سبحانه وتعالى، فطمعُك في القدر والجاه والثناء عند المخلوقين، وخوفك من سقوط منزلتك عند المخلوقين، وذلك مما يُسقط منزلتك عند الله عز وجل .

فأهل المعرفة بالله، وأهل الإرادة، يكرهون أن يراهم الله سبحانه وقد اعتقدوا من ذلك شيئًا .

حملتهم المعرفة بالإجلال لله، وإيثار محبته على ألا ينظر إليهم سيدهم وفيهم شيء مما يكرهه في مبلغ عملهم، فهم يكرهون ما يكره الله في غيرهم، فكيف يرضون به في أنفسهم؟

أبت معرفة الله أن يساكنها شيء من مكاره الله.. وأبت الإرادة أن تشتغل بغير ما أحب الله.. قد شغلتهم المعرفة بالفكر في كثرة نعم الله عز وجل عليهم.. وعجزهم عن أداء شكرها.. مع عجزهم عن إحصاء عددها.. وباستكثار ذنوبهم.. وكثرة ذكرهم للحياء من الله أن يسألوا الجنة.. فليس تخطر الجنة لهم على بال.. وقد حال بينهم وبين مسألتها الحياء من الله.. والخوف منه.. ومصيبتهم في أنفسهم مما يخافون من فوت رضوان الله عنهم، وسخطه عليهم، أعظم في أنفسهم، وأوجع لقلوبهم من فوت الجنة وخوف النار، ومن الذي يجدون مما يلقي الشيطان من الخطرات، وعوارض الدنيا، وحب التزين لأهلها عند عبادتهم وطاعتهم، وكثرة فساد النية، والآفات التي تعارضها، فهم بذلك مغموصون مكروبون، مخافةَ أن يراهم الله وقد تزينوا لأحد غيره .

فلا تكن يا أخي بشيء أعنى منك بالمعرفة والإرادة، فإن الخير تبع لهما، وهما علامة نظر الله لعبده، وبالله التوفيق .

السمع عن الله، والعقل عن الله

ثم أوصيك يا أخي بعد مراقبة الله عند همتك إذا هممت، وعند كل حركة تكون منك، وكل سكون: أن تستمع من الله، وتعقل عنه، فإن في هذا القرآن الذي أنزل علينا تبيان كل شيء، وعلم كل شيء .

فعليك بتدبره وتأمُّلِه في الليل والنهار، وأعمِلْ نفسَك في فهمه، والعمل به، أوَلَا تسمع إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ .

فلا تغفل عن مراقبة مَن لا يعزب عنه أصغر من مثقال ذرة، ولا تشبع ولا تمل منها، فإنه تعالى لا يغفل عنها، ينظر إليك، ويطلع على ضميرك، ويحصي عليك مثاقيل الذر، وموازين الخردل، حتى يجزيك بذلك. أوَلَا تسمع إلى قول الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

كمال المراقبة

واعلم يا أخي أنه لا يكاد يحسن الشيء إلا بشيء قبله وشيء بعده .

فأما ما تحسن به المراقبة قبلها: فالانقطاع إلى الله، ولزوم طاعته، بالمراقبة له في السر والعلانية .

وأما ما يحسن به الانقطاع إلى الله قبل الانقطاع فأربعة أشياء: التوبة، وإيثار ما يحب الله على ما يكره، وأن تكون به أنس منك بخلقه، ولا تفرح بما زادك من الدنيا ولا تحزن على ما نقصك منها وهي درجة أهل الورع والقنوع .

والذي يقويك على ذلك: التصديق بوعد الله تعالى، والثقة بضمانه، والترجي بما يكفيك منها، ولزوم سرعة الانتقال عن الدنيا .

وأما إيثار ما يحب الله على ما يكره، فسبحانه ليس أحد أحق ولا أولى بذلك منه تبارك اسمه. وهو إيثار محبته على هواك، وهو فرض على المدبرين عنه والأبَّاق، أن يرجعوا إليه ويعاملوه. وكيف لا يؤثره من تعوَّد القرب منه، والانقطاع إليه؟

أما الأنس به فهو: أن تكون به أشد أنسًا منك بخلقه، فمن عرفه وعرف لطفه وكثرة أياديه، وحكمه، وبره وعطفه، وتفضُّله، أنس به .

وكيف يراقب العبد من لا يعرفه؟ وكيف ينقطع إلى من لا يثق به، ولا يأنس به؟

وأما الذي يحسن الشيء بعده فالشكر. وأشهد أنك لو عقلت ما تقرأ، وكنت مريدًا لهذه المنزلة، لنظرت إليه بعين المحزونين الخائفين ألا يقبلك، وأن يستقذر إرادتك وسيرتك، وأن يردَّك عن بابه، وأن تقدم عليه وأنت كذلك .

الاعتبار

واستعن في أمرك كله بالاعتبار، فإن الأمر لا يزال مستورًا منك، أو غائبًا عنك. فإذا نظرت إليه نظر المعتبِر كاد أن يقوم لك الاعتبار مقام المخبر المعاين لما قد غاب عنك، ومقام الكاشف لك عن المستور عنك، حتى تنظر إلى زين الأمور وشينها، وحسنها وقبيحها، وتعرف من أين صار الحسن حسنًا، والقبيح قبيحًا، فتتبع من ذلك ما فيه نجاتك، وتجتنب ما فيه هلكتك، وتعرف الناس بالاعتبار على منازلهم في لحن القول، ولحن الفعل، وتعرفهم، وتعرف منازلهم، ومذاهبهم، بنور الاعتبار، ومواهب الإلهام إن شاء الله تعالى .

الاقتصاد والحزم

وعليك يا أخي بالاقتصاد والحزم في أمورك كلها، فإن الاقتصاد أرجى للثبات، وأسلم من الآفات، والحزم ينفع أهله عند الشدة، ولا يضرهم عند الرخاء .

فاستكثر من المعرفة ما قدرت، فليست المعرفة كالعمل، للعمل حد ينتهي إليه، وليس للمعرفة حد تنتهي إليه، لأنك تريد بالمعرفة استكمال أمر الله، وإقامة حقه، ولا يبلغ ذلك أحدٌ، لأنه سبحانه وتعالى أجلُّ وأعظم من أن يبلغ الآدميون كُنْهَ حقِّه .

غير أنهم يتباينون فيه بزيادة المعرفة ونقصانها، مع المعرفة والأنس، والروح والفرح والراحة، لزيادتها نعمة من الله، ونقصانها عقوبة من الله بذنب، أو تضييع شكر .

احذر صغائر الذنوب، وارغب في صغائر الخير

واحذر ما يكره الله من عملك ونيتك، وسرك وعلانيتك، في الصغير، كما تَحذره في الكبير، وإن كل شيء يفسد عليك مثقال ذرة قدمته لله يفسد عليك مائة ألف دينار.. والدنيا كلها مثل ما أفسد عليك مثقال ذرة، فسادًا سواء، لا فضل بينهما .

ثم هكذا في سائر الأعمال، يأتي الفساد على كثرتها كما يأتي على قلتها سواء .

وارغب في الصغير من الخير، كما ترغب في الكبير، رغبة واحدة، لأنه يقبل القليل من العبد كما يقبل الكثير قبولًا واحدًا سواء، وهكذا في سائر الأعمال .

وكفى بقبول الله الصغير من عبده لعبده فوزًا، مع أن أعمال بني آدم كلها صغار، إلا ما قبل الله منها، فإذا قبل منها شيئًا صار عظيمًا، وإن كان قبْل ذلك صغيرًا .

واعلم أن صغارها أسلم من كبارها في الرياء والإعجاب والامتنان . فانتبه لذلك، ولا تغفل عنه .

واعلم أن لك في عملك إرادة وأملًا، فانظر إرادتك في أعمالك كلها، كإرادة أهل الشكر والرضا، وأملك فيه كأمل المسرفين على أنفسهم، فليس شيء أحب إلى أهل الرضا من شيء يرضى الله به، ولا شيء أحب إلى أهل الشكر من شيء يشكرون الله عليه، ولا شيء أولى بأهل الإسراف على أنفسهم من شيء يرجون به عفو الله .

واعلم أني لست من قلة العمل أخاف عليك وعلى مثلك، ولكن أخاف عليك من قلة المعرفة، وضعف الإرادة .

لا أجدني أخاف عليك وعلى مثلك من قلة التطوع، ولست أخاف من الورع ألا تنظر فيه كما ينظر غيرك، أو لا تترك شهوات أحلها الله لك، وتؤثِر بها عليك غيرك .

إلا أني أخاف عليك: أن تنازع في أمر يكرهه الله ولا ينفعك، قد خفي عن الناس، وهو عند الله ظاهر، فيفسد عليك جميع ما أردت.. أو ترى أن لك فضلًا

على غيرك، فيحبط ذلك جميع ما كنت فيه .

وأخاف عليك ألا تقوم بصيانها، كما قمت بعلمها، فيهدم ذلك جميع ما كنت فيه، وما بنيت عليه. أو لا تؤدي ما يجب عليك من الشكر فيها، فيلزمك من الذم في كفران النعم أكثر مما رجوت من الحمد فيها .

أو تكون تدل على الله عز وجل بعملك، فيسقطك ذلك من عند الله .

أو تَمُنُّ به على أحد، أو تؤذي بسببه أحدًا. فقد علمت ما قال الله عز وجل في ذلك:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ .

وربما يعزم على العمل الذي أراده فلا يجده كما وجده بغير عزم عليه .

كمال العزم

قلت: فما بال الرجل يأتيه الأمر مما يحب من غير طلب ولا عزم عليه، حتى ربما أخاف من عزمه أن يكون عليه أكثر مما يكون له؟

قال : هذا من الذي قلنا: لا يصلح الشيء إلا بشيء قبله وشيء بعده، فإذا لم يكن عزم بمعرفة كان عاقبته نحو الذي ذكرت .

ومعرفته: أن يكون بدؤه بالافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يكون كالتَّألِّي على الله .

والتوكل: أن ينفرد بإشعار قلبه في تفويض المقدرة إلى الله سبحانه وتعالى، والتبري من الحول والقوة، أوَلا تسمع إلى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ . فهذا زيادة على التوكل أمرٌ أمرك الله به. وقوله تعالى:﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ .
والمشورة من الحاجة لا من الغنى. أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعين بمن ليس هو مثله، وأن تبقى سنته سنة لمن هو بعده .

فكيف بمن هو مثلي ومثلك إذا سها عن الله فيما لا يسعه إلا التضرع إليه؟

أوَلَا تسمع إلى قوله عز وجل في قصة يعقوب:﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ . فكان عاقبة يعقوب تمام ما أراد .

وقول يوسف في القرآن:﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ . وتمم له أمره حين أخرج نفسه من القدرة، وأقر بالافتقار، وفوض الأمر إلى ربه .

وقول الآخر في القرآن:﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ . فسألوه ولم يفوضوا إليه أمرهم، لا قبل المسألة ولا بعدها. قال:﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ . ولم يتمم لهم أمرهم .

وقول الآخر أيضًا في القرآن : ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ .

ثم انظر إلى قول آدم حين تقدم على حمل الأمانة بغير افتقار ولا استكانة، فلم يتمم له أمره، وعير بالجهل والظلم .

وماذا يغني العزم من الذي ليس بيده الأمر؟

من فرائد الحكمة

قال: ومن لا يكون عالمًا بما ورد عليه من الله يوشك ألا يكون عالمًا بما ورد على الله تعالى منه .

واعلم يا أخي أنه من أطاع الله ولم يَخَفْهُ فقد أطاعه في العمل، وعصاه في ترك الخوف، فكيف بمن يعصيه ولا يخافه؟

وقال: لو أنك لم تأخذ من الدنيا إلا قوتك، غير أنك لم ترد الله به، قطع بك، ولو تركت قوتك من الدنيا، ولم ترد الله به، قطع بك .

وقال: لو عقلت عن الله أمرين، لنظرت إليه بعظيم الشكر له، حيث لم يجعل دعاءه إلى الجنة في ترك ما تحتاج إليه في الدنيا، ولم يجعل دعاءه إلى النار في حاجتك منها .

وقال: اعرف النعمة تكن من أهلها، فإن البهيمة لا تجد رائحة المسك، وإن حُشِيَ به منخراها .

وقال: كن من أبناء الحق، يحبك الحق .

وقال: اجعل نفسك تابعًا في طريق الهدى، ولا تجعلها قائدًا إلى طريق الهوى .

وقال: احذر شهوة لا تبقى، وندامة لا تفنى .

وقال: أنيسك اليوم هو أنيسك غدًا في قبرك، وعملك اليوم هو عملك غدًا، فانظر مَن أنيسك، وما عملك؟

وقال: احفظ الله عند هواك، يحفظك عند لقاك .

وقال: تَعوَّذْ بالله من عملٍ ظاهره طاعة، وباطنه معصية .

وقال: ما ترك الحق لأهله سرورًا، ولا أبقى الباطل لأهله من الآخرة نصيبًا .

وقال: من علم ما بين يديه، هان عليه ما في يديه .

وقال: إذا أكملت معرفة الرجل بالدنيا تعجب من أبنائها، وإذا عمي عن معرفة الآخرة تعجب من أبنائها .

وقال: من عرف الدنيا قاطعها، ومن لم يعرفها انقطع إليها. ومن عرف الآخرة انقطع إليها، ومن لم يعرفها قاطعها .

وقال: أقل الشهوات لك نفعًا في الدنيا أضرها عليك في الآخرة، وأقل شهوات الآخرة مؤنة عليك في الدنيا أردها عليك في الآخرة .

وقال: ما أيسر الأمر على من احتسب بنفسه عن منافسة أهل العز في عزهم، فقد هُدي إلى المرتقى الذي ارتقى منه المحبون لقرب الله عز وجل .

وقال: اختيار العبد للعبودية شفاء، وبرد على الفؤاد، وجلاء للبصر .

وقال: طلب العبد للحرية بلاء يغشى منه البصر .

وقال: العامل الناظر عمله على المحبة، والعامل السامع غير الناظر عمله على الاستثقال. فاعمل عمل من سمع ففهم، ونظر فأبصر، ولا تعمل عمل من سمع ولم ينظر .

وقال: رب نعمة تصير عقوبة ونقمة، ورب عقوبة تصير نعمة .

وقال: إذا أردت أن تحب شيئًا فأكثِر ذِكْرَه، فإن الذكر والنسيان لا يجتمعان .

وقال: الحسنة الصادقة المشكورة يُثاب عليها صاحبها في الآخرة، ويزاد منها في الدنيا، يزاد للشكر، ويثاب للصدق .

وقال: من أنفع العبادة أن يعامل العبد نفسه باستصغار الدنيا عندها .

وقال: ومن أحسن العبادة: أن يمتلئ قلب العبد من حب الطاعة، فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح في العبادة والقلب في البطالة .

قلت: وكيف عبادة القلب دون الجوارح؟ وكيف يفيض القلب بالعبادة إلى الجوارح؟

قال: أن يصير وعاء للهم والحزن، والافتقار والخوف، والندامة والتواضع والاضطرار إلى الله عز وجل، والنصح له وحب ما يحب الله، وبغض ما يبغض

الله .

فإذا عامل الله على هذا بقلبه، هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعث على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه ما تأتي به القيامة .

والباب الآخر: أن يمتلئ قلبه من معرفة نِعم الله عز وجل، وسروره بالله، وأنسه بعبادة الله، وشوقه إلى محاب الله، وحبه للشكر لله، ورجائه مغفرة الله .

فإذا عامل الله بهذا من قلبه، اشتاق إلى عبادة الجوارح معه، فيكون عاملًا، وفي عمله أنس وسرور وحلاوة .

وقال: ومن أشرف العبادة أن تراقب الله بما يحب الله، فإذا فترت عن ذلك راقِبْه فيما يكره، ملتمسًا العودة إلى الحالة الأولى التي كنت عليها، حريصًا على ذلك، فيحدث لك حينئذ إليها حنين شديد، فإنه إذا رآك كذلك تحن وتحرص، رد عليك ما سلبك .

قال: وفي هذه المسألة والتي قبلها، وفي جميع الأعمال، على العامل أن يعقل ما على القلب، وما على الجوارح، فيبدأ بما على القلب، ثم بما على الجوارح.. فإن القلب هو الأصل، والجوارح أغصان، ولا تقوم الأغصان إلا بالأصل .

قال: ومن أحسن الأخلاق أن تكون سجية العبد التواضع، ومن أحسن الفعال الإحسان إلى من أساء إليك .

وقال: اجتهد ولا تيأس، ولا تقل عند ذكر الصالحين: لولا ذنوبي لرجوت طريقة الصالحين، فيُفَتِّرك ذكر ذنوبك عن العمل، فإن صاحب الحمل الثقيل أولى أن يجتهد في إسقاط ما قد حمل من المخف الذي ليس على ظهره شيء .

وقال: إن أردت أن ينظر الله إليك بالرحمة، فانظر أنت إلى الصالحين بالغبطة، وإلى العاصين بالرأفة .

وقال: إذا وقع في قلب العبد الاهتمام بالنفس اشتد خوفه عليها، وعظم رجاؤه للناس، وإذا خلا قلبه من همِّ نفسه، حسن ظنه بها، وعظم رجاؤه لها، وخاف على الناس .

وقال: من طالت فكرته في أربعة أشياء أورثته الحزن والهم، وهي تؤدي بعضها إلى بعض، وكل خصلة منها كافية: إذا فكرت في علم الله فيك، وأين اسمك في أم الكتاب؟ وبم يختم لك؟ وذكرت ذنوبك .

وقال: من طالت فكرته في أربعة أشياء أورثته الخوف والخشية، وهي تؤدي بعضها إلى بعض، وكل واحدة منها كافية: من فكر في الموت، وسرعة انقضاء الأجل، والمصير إلى القبر، والوقوف للحساب والنار التي لا صبر لأحد عليها .

وقال: لا تنازع الله في محبته، فتكون قد عاملته بالغلبة .

وقال: لا تؤثر على الله أحدًا، فيكلك إلى من آثرته عليه .

وقال: إلى متى تعد الشغل عونًا .

وقال: إن لم تترك ما يرديك، أقبل عليك من يغويك .

وقال: إذا أردت أن تقسم صدقة أو معروفًا في الناس، أو في سواك قريب منك، فإنما تبدأ أقربهم منك منزلًا، وأشدهم إلى صدقتك فقرًا، ثم الذي يليه، ولم تذكر بصدقتك من بعد منك، أو استغنى عن صدقتك .

فقرب يا أخي منزلتك من الله، واكشف له عن فقرك إليه، ينلك معروفه في أول من ينال. فافهم يا أخي إن كنت تفهم .

وقال: لو كان لك عبيد أردت عتق بعضهم، أليس كنت تبدأ بأعدلهم سيرة، وأنصحهم لك وأخدمهم؟

وقال: إنك إن لم تترك ما يكرهه الله لم يذكرك فيمن يحبه .

وقال: ابذل لله ما أغناك عنه، يبذل لك ما لا غنى بك عنه .

وقال: من كان يحب القرب من الله، فليترك ما يباعد من الله تعالى .

وقال: اجعل بصرك بين يديك، فإن الذي وراءك قد جزته .

وقال: إنك لو رأيت من باع نصيبه من الآخرة بنصيب غيره من الدنيا، لعجبت منه، فبِع أنت نصيب غيرك من الدنيا بنصيبك من الجنة، فإن الذي يبقى منك إنما هو رزق غيرك .

وقال: لا تطلب المحمدة ممن يموت، فتلحقك المذمة ممن لا يموت .

وقال: اترك خوف الدنيا، تأمن الآخرة، واطلب أمن الآخرة بخوف الدنيا .

وقال: إذا عرضت لك شهوة فاذكر العاقبة، فكم من شهوة ذهبت عنك لذتها، وبقيت عليك حسرتها .

وقال: إن الذي يفسد عليك الآخرة هو الذي لا تحتاج إليه في الدنيا، فما راحتك إليه؟

وقال: لو رأيت رجلًا بين جماعة، وكل واحد يكيده بألوان المكايد، ثم لم تره يتضرع ويستكين، وينقطع إلى من يرجو نجاته، لسفَّهت رأيه وعقله، فلا تكونن أنت هو .

وقال: ما وجد أحد من صاحبه رائحة أطيب من رائحة حسن الخلق .

وقال: إن لك في خصال ثلاثٍ شُغلًا عما سواها: في مراقبتك ربك، ومحاسبتك نفسك، ومذاكرتك ذنبك .

وقال: اصرف عنك عوارض الشهوات بالحزن والندامة على الشهوات الماضية، التي قد انقضت عنك لذتها، وبقيت عليك تبعاتها، وألق عن قلبك الهم، تصديقًا بوعد الله تعالى، وألزم قلبك الخوف، حذر الوعيد لله تعالى، وتواضع له افتقارًا إلى رحمته، واستصغارًا لنفسك عند ذكر عظمته، وانف عنك التزين للناس، إيثارًا لمحبته، واستوجب اسم الشكر له على إحسانه إليك بالمحبة منك لعبادته، واستوجب اسم الخوف منه بالكراهة منك لمعاصيه، واستوجب نعمة معرفته بحبك لمراقبته، واستوجب اسم الحب لمراقبته بالأنس به دون خلقه .

وقال: إن للناس منازل ودرجات، فمن نظر بعيني قلبه أبصر درجاتهم ومنازلهم في طريق الآخرة، كما أبصر بعيني رأسه منازل ودرجات أهل الدنيا .

ولا يستحق أحد منزلة من منازل الدنيا والآخرة بمعرفة قلبه، ولا بذكر لسانه، ولكن بعمل أهلها، والقيام بشروطها، وكما لا ينفع الفقير معرفته بيسار الموسر، وما يملك من النعيم، وألوان الأطعمة والأفرشة واللباس، كذلك لا تنفعك معرفتك بأعمال الصالحين وأنت غير عامل بمثل عملهم، بل هو حجة عليك، والله نسأل التوفيق برحمته .

من عيون المعرفة

اختبار النفس

يُروى عن حكيم أنه سئل عن امتحان النفس في الصدق، حتى يعلم العبد أصادقة هي أم غير صادقة، فقال :

إذا علم العبد أن أحسد حاسد له، وأعدى عدو له، نال بعلمه ثناءً وجاهًا في الناس، ويكون مستورًا على الناس عمله، ويلزمه هو بعمله الخالص رياء عند الناس، وسقوط منزلته عندهم.. فإن سَخَتْ نفسه بذلك، وأحبت إنفاذ العمل، فهو علامة الصدق، حتى يرد عليه من ذم الناس له، وإقامة جاه حاسده وعدوه ما يعلم بطلانه .

فإن لم تُحدِث النفس عند ذلك خواطر الندامة، ومضت على محبتها للعمل، فبارك الله فيها، وهو والله الصدق بعينه، وهو عامل لله حقًّا، وعمله لما بعد الموت مخلصًا .

كيف يكون شكر النعم

قلت: أخبرني عن قول الناس: شكر النعمة معرفتها .

قال: شكرها: معرفتها على قدرِ موقعها من قلبه، بتعظيمها وتعظيم إحسان المنعم عليه بها، ولا يكون معظِّمًا لها حتى يكون راغبًا فيها، ولا يكون راغبًا فيها حتى يعرف حاجته إليها، ولا يعقل حاجته إليها إلا بتدبر عواقب الأمور، وسرعة المصير إليها، وشدة حاجته إلى ما يقدم عليه .

فعند ذلك تعظم النعمة عنده من المنعم عليه بها، ويعرف امتنانه وإحسانه إليه فيها، فعند ذلك يشتهي الزيادة منها، وإذا علم الله تبارك وتعالى ذلك منه زاده منها .

وفي الجملة: إنه من رُزِقَ شيئًا يرجو به مرضاة ربه، والنجاة من النار، عظم في عينه، وتشوق القلب إلى المعطي .

ولا يكون شاكرًا لنعم الدنيا كلها حتى يكون شاكرًا لنعم الآخرة، ولا يكون شاكرًا لما تحب نفسه حتى يكون شاكرًا لما يحب الله، ولا يكون شاكرًا للناس، وليس بشاكر لله .

الاعتبار بما قبل الولادة وما بعد الموت

من علم أنه لا يملك من نفسه إلا كما كان يملك قبل أن يولد، وكما يملك بعد أن يموت، فقد أنزل نفسه منزلة الضعف والفقر في التواضع والاستكانة، ومن لم ينزل نفسه ذلك المنزل، ولم يعلم أن ذلك كذلك علمًا يقينًا، فقد استحق طريقة الجاهلين، واستوجب عقوبة المستدرجين .

استحي من الله وحده

وقال : إذا حملت وعاء من أوعية الشر، فإنك ترتعد خوفًا أن يبدو للناس شيء مما فيه من الشر.. فمتى يصلح ما بينك وبين الله؟ هيهات .

اذكر الموت كالعبد السوء الذي لا يستحيي من مولاه، ولا يرجع عن مساويه، ولا يعرف إحسانه إليه إلا عند الحساب والعقاب، واذكر الموت وما بعد الموت .

وقال: ما ظنك بمن يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره الله، ولا يستحيي أن يطلع الله منه على ما يكره .

سوءة لمن كان هكذا، وعجبًا له ! حيث يترك، ويضيع الفرص، ويركب من الأشياء ما كره الله، ثم يتقرب إلى الله بما لم يفرضه عليه، ويتعاطى النوافل، من الحج والعمرة، ويأمر وينهى، ويدعو الناس بزعمه إلى الله، ويأبق منه، ويأمر ولا يعمل، وينهى ولا ينتهي .

أترى من كان هكذا عرف الله؟ أو يعتد بنظره إليه؟ أو صدق في أن عند الله ثوابًا للمطيعين، وعقابًا للعاصين؟

سوءة لمن كان هكذا .

حقيقة التواضع

قلت: أخبرني عن قول القائل: التواضع هو: أن تكون إذا خرجت من بيتك فكل من استقبلك رأيت أن له عليك الفضل. فإذا كان الرجل يدعي هذا، ويقر به بلسانه، غير أنه إذا صار إلى احتمال شروطه ومِحَنِه لم يتحملها إلا بالكره من نفسه، أيكون هذا متواضعًا؟

قال: إذا كانت تلك الشروط من الحقوق الواجبة فلم يقبلها إلا بالكره من نفسه، فلم يبلغ هذا درجة المتواضعين .

وإن كانت شروطًا دون الحقوق الواجبة، مما لا يحرج العبد ترك قبولها من أحد، وكان طيبًا بقبول الواجب منها، فهو طريق المتواضعين، وعلى منهاجهم .

أصلِحْ ما بينك وبين الله

ويُروى عن بعض الحكماء أنه كتب إلى أخ له: أوصيك يا أخي بإصلاح ما بينك وبين الله، وإيثار محبته على هواك، والإقبال على عمل مَن إليه معاملتك، وقِبَله حاجتك .

واعلم أن أيامك قليلة، ونفسك واحدة، فإن فنيت أيامك فلا رجعة لك فيها، ولا عوض لك منها، وإن عطبت نفسك فلا نفس لك سواها .

وهل تدري يا أخي ما إصلاح ما بينك وبين الله؟

ألا يأتيه منك شيء إلا كان فيه له رضا، ولا يأتيك منه شيء إلا كان لك به رضا. فإن ضعفت عن الرضا بكل ما يأتيك من حُكم الله وأمره، فلا تضعفن عن الصبر، فإن له الرضا بحال عبده ما دام العبد راضيًا بحكمه .

وله الرضا بصبر عبده على أمره وحُكمه ما دام العبد صابرًا على ذلك، فله فيهما الرضا جميعًا .

وأما عملك فالوفاء بعهده، والشكر على نعمه .

وأما حاجتك فمعرفته وعفوه، فإن الله سبحانه خلق آدم وذريته، وخلق الجنة ثوابًا لأهل طاعته ورحمته، وخلق النار عقابًا لأهل معصيته وسخطه، فنعوذ بالله من سخطه وعقابه .

فتعاهد يا أخي أيامك، في ليلك ونهارك، وجميع أحوالك، ما أنت فيه، وما أنت عليه .

وتعاهد ضميرك فنَقِّه وخلِّصه وسلِّمه، حتى يكون نقيًّا مما تخاف عليه العقاب، فارغًا لما تؤمِّل فيه من الثواب، فإنك غير غائب عن الله طرفة عين، يراك ويحصي عليك مثاقيل الذر، وموازين الخردل، ليجزيك بذلك يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر .

فلا يغيبن عنك ذكره، فإن حاجتك إليه، إذ لا حاجة له إليك .

واعلم يا أخي أن أصل كل قول العلم، وأصل كل عمل العلم، وأصل كل ذلك التوفيق، مع صحة تركيب العقل، وكثرة الفكر. فإن قدرت ألا تكون بشيء أعلم منك بالله فافعل، فإن القول والعلم والعمل وغير ذلك هو المراد به تبارك وتعالى، وأن أفضل الناس أقربهم من الله، وأقربهم منه أعلمهم به .

وقد بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يتفاضل الناس بالمعرفة ».

وقال ابن مسعود: «ذهب عمر بتسعة أعشار العلم». وإنما يعني بذلك العلم بالله .

واعلم يا أخي أن الناس إنما يخلصون في أعمالهم على قدر معرفتهم به، ويتواضعون لله على قدر معرفتهم به، ويشكرون الله على نعمه على قدر معرفتهم به، ويرجون الله ويخافون على قدر معرفتهم به، ويحسنون الظن على قدر معرفتهم به، ويصبرون على طاعته وعن معصيته وعلى كتمان طاعته وعلى المصائب التي تنزل بها أحكامه على قدر معرفتهم به، ويحبون ما أحب ويبغضون ما أبغض على قدر معرفتهم به .

فمن فاتته المعرفة بالله دخله النقص في جميع ما ذكرنا على حسب ما فاته من المعرفة، وعلى حسب ما رزق منها، فكذلك حظه من الخير والشر .

فالتمسها يا أخي من مليكها التماس من لا يستأهل أن يعطاها، فإن العلماء قد صاروا إلى ما صاروا إليه من العلم على قدر ما أحسنوا من الطلب، ووضع الأشياء مواضعها .

فإذا أصبحت وأردت شيئًا من الخير فانظر كيف شُكرك على ما أنعم به عليك ربك في ليلتك، وكيف توبتك مما يتاب منه، فقد قال تبارك وتعالى:﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال:﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

وإذا دخلت في شيء من الخير فانظر ممن كان بدؤه، وعلى من إتمامه، وأنه لو قيل لك: من أحب إليك أن تعمل له؟ لقلت: الله.. فليحقق ضمير قلبك ما عبر وأقر به لسانك .

واعلم يا أخي أن أهل الدنيا والآخرة بين سرور وهموم. فأهل سرور الآخرة أهل الجنة.. وإن أفضل سرورهم النظر إلى الله.. وإن أفضل سرور المؤمن في الدنيا سروره بربه.. وبأنه عبده.. وتصديق ذلك أنه بمراقبته ومناجاته..

وبكل ما يعمل له.. وعلامة أنسه بعمله وجود حلاوة العمل له.. وشدة الحب لخدمته .

ومحال أن يستأنس العامل بعمله، وهو غير مستأنس بمن يعمل له، أو غير خائف منه .

واعلم يا أخي لو أن الذي تطلب وتعالجه من نفسك من الطاعة والاستقامة لله، كنت تعالجه من جميع أنفس ولد آدم لكان في الله قليلًا.. فكيف وهي نفيسة واحدة في أيام قليلة .

فالزم يا أخي المحافظة والمداومة على التعاهد في المراقبة. فلو كانت الدنيا كلها لك، فبذلتها ونفسك معها، شكرًا لما أنعم عليك من معرفة، وأنه ربك، وأنت عبده، وأنه هو أمرك بعبوديته، ونهاك عن عبودية غيره، لكان ذلك كله قليلًا حقيرًا في جنب نعمته عليك في ذلك .

فلا تضيعها بشغل ما لا حاجة لك فيه.. فإنه لا غنى بك عن معرفة إحسانه إليك.. كما لا غنى بك عن إساءة نفسك.. فإن العبد بين ذنب ونعمة، وبين شكر واستغفار .

والحمد لله على ما أنعم علينا وعلمنا، وكان فضل الله علينا عظيمًا .

حقائق التوكل

ويُروى عن بعض الحكماء أنه قال: أحمد الله إليكم حمد من لا يعرف إحسانًا إلا منه، ولا يعرف معبودًا غيره، وأسأله توكل المنقطعين بصدق الانقطاع إليه .

أما بعد :

فإن الله تعالى خص أهل ولايته بغبطة الانقطاع إليه، ليعرفهم تواتر نعمه، ودوام إحسانه وفضله، فانصرفت هموم الدنيا في قلوبهم، وعظم شغل الآخرة في صدورهم، لما سكنها من هيبة ربهم، فألزموا قلوبهم ذل العبودية، وطرحوا أنفسهم في محجة التوكل على الله .

واعلم يا أخي أنك لا تكون متوكلًا على الله إلا بقطع كل مؤمَّل دون الله .

وكيف لا تسخو نفسك بقطع كل علاقة من قلبك، وتفرغ قلبك للإقبال على الله، وصدق التوكل عليه، والله حَسْبُ من توكل عليه .

والمتوكل الصادق مِن توكله لا يجد قلبه يخضع لمخلوق، لأن قلبه مملوء بالثقة بضمان الله .

والمتوكل الصادق في توكله: القليل من عطايا الله عظيمٌ عنده عند صغر قدره، لمعرفته بعظيم قدر الله، فهو ساكن إلى روح اليقين، وهي المنزلة التي يغبطه بها أهل الحرص على الدنيا .

فمن سكن قلبه إلى أنه ليس نعمة في السماء والأرض إلا وهي لله، استراح قلبه من عذاب الحرص . أما سمعته يقول : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ . وقال : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

فإذا ألزمت الثقة قلبك، فإنما أنت ناظر إلى الله، لأن الملك لله دون خلقه، وبقدر تركك الثقة يعظم حرصك على الدنيا ..

فخالف حرصك على الدنيا بالقنوع بما قسم لك، فإنك تسرع في عداوة الحرص على الدنيا، لأن الحرص لا يعطي ولا يمنع .

والمتوكل على الله استغنى بالمعطي المانع عمن ليس بمانع ولا معطٍ، فهو غني بالله عمن سواه، فقير إلى الله، قد سكن قلبه عن الاضطراب، فليس لمخلوق في قلبه خطر ..

فمن وثق بغير الله لا يغنيه.. والمتوكل لزم التقوى، فجعل الله له مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب ولم يقل من حيث يحتسب. وقال : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ .

فالمتوكل توكل على الله في حاجاته كلها، من أمور آخرته ودنياه، وقطع رجاءه ممن سواه، ولم ير نفسه موضعًا لاختيار نفسه، لأن الله حسبه، ومن كان كذلك فقد سكن إلى روح اليقين .

وهذه المنزلة التي لا منزلة أرفع منها في سكون القلب إلى الله، والطمأنينة بموعود الله، لأنه قد جعل الله حسبه من جميع خلقه، ومن كان الله حسبه فلا يجد فقْد شيء، لأن الله قد ضمن له، وهو بالغ أمره .

واعلم أنك والخلق جميعًا مضطرون إلى الله، في كل حال، وفي كل حركة، وكل سكون، لأنه الغني وحده، ومن وثق بغير الله فقد رأى أن ملكًا أكبر من ملك الله، ومن وثق بالله استغنى به، لأن الله حسبه، وفي الله خلف من جميع الخلق، وليس في أحد من الخلق خلف من الله، لأن الله هو الغني وحده .

فإذا علمت أن الله حسب من توكل عليه، فكيف لا تطلب الكفاية بالتوكل على الله عز وجل؟

ألست تعلم أن الرزاق قد قسم بين عباده معايشهم، وقد فضل بعضهم على بعض في الرزق، وقد فرغ مما قضى وقدر من ذلك؟

فكيف تعني بعد علمك بطلب ما قد فرغ لك من مقداره؟

ألا تسمع إلى قول الله عز وجل:﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فكيف تطلب كشف الضر من غير الله، أو تطلب المنفعة من عند غير الله؟

وكيف لا يكون الغالب على قلبك طلب كشف الضر وطلب النفع من عنده وحده، إذ علمت أن ذلك كله إنما هو بيده وحده؟

وكيف تخاف فوت شيء من الخير يريده الله بك؟ وإن لم يرده بك فمن يعطيك ذلك؟ أو ينيلك إياه؟

والمتوكل على الله لا يلتفت إلى الدنيا، لأنه لا يراها لنفسه خطرًا، ولا يراها ونفسه وجميع ما فيها إلا لله. ويستوي عنده ركوب البحر، والمشي في البر، والأنس والوحشة، والعمل والجلوس، لأن الله تعالى كافٍ من توكل عليه . أوَلَا تسمع لقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ .

فالمتوكل على الله اكتفى بعلمه بالله عن الاشتغال بغيره، لأنه علم أن الذي يوصل إليه المنافع هو الله وحده لا شريك له .

وأيضًا إذا سكن قلبك إلى الله لم تخف غيره، لأن الله حسب من توكل عليه .

ومن علامة المتوكل: أنه يؤثر الصدق حيث يضره على الكذب حيث ينفعه، لأنه لم يصح لمن توكل عليه أن يخاف غيره .

وكذلك إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لم يخشَ إلا الله، لأن رجاءه من الله أكثر من خوفه من توعد المخلوقين، لأن المتوكل على الله أخرج من قلبه كل مخُوف ومحذور ومحزون دون الله، حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله .

واعلم أن المعاون إنما تحضر عند إخراج العالم من قلبك، فتنحاش عند ذلك إلى مالك العز، والغنى بالله، لأنك تعلم أنه لا مانع ولا معطي ولا ضار ولا نافع إلا الله وحده .

ولا ترغب عن الله بجهلك، فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان، فيستولي عليك عند ذلك. أوَلَا تسمع قوله:﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ .

فما يضرك من مواعيد الشيطان مع ضمان الرحمن؟

واعلم أنك لا تكون متوكلًا على الله تعالى حتى تسلك منهاج المضي إليه على السكون والاطمئنانية إلى الله، وحتى تعبد الله راضيًا بما صيرك إليه، لأنك لا تعرف غيره .

فإذا صرت إلى هذه المنزلة غلبت على قلبك عظمة الله وجلاله، لأن الخلق كلهم مقصرون عن حقه عليهم جل جلاله .

واعلم أن الله سبحانه خص المتوكلين عليه بمنازل السلامة، وحجب عنهم كل ندامة، فهم ينظرون إلى الله فيما يأملون .

قد حجب قلوبهم عما سواه، لما يرجون من إحسانه، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره .

واعلم أنك لا تكون متوكلًا حتى تصفو من كل ملْكٍ لنفسك، مع ملك الدنيا، وحتى لا تثق إلا في الله وحده لا شريك له، وحتى ترى مؤنتك على الله وحده، فلا يذهبن بك الطمع إلى غير الله .

ألا ترى أن الذي طمعت فيما في يديه أليس هو في ملك الله؟

هل في السماء حاجز يحجزك عن الله؟

فاعلم أنك لا تقدر أن تفرض رزقك، كما لا تقدر أن تفرض الموت. أما سمعت الله يقول:﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ .

فاسكن يا أخي إلى موعود الله تعالى في رزقه، كما تسكن إلى أنك ميت، واقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك .

واعلم أن الله يرزقك لسبب وبغير سبب، وكل سبب فهو ثابت، لا تعلم متى يأتيك رزقك، كما لا تعلم متى يأتيك الموت .

ألا ترى أن الله وعدك أن يرزقك وغيب رزقك عنك بالقضاء، وله وقت ينزل فيه؟ فلو احتلت بكل حيلة أن يأتيك قبل وقته لم تقدر على ذلك، حتى ينزل في وقته .

أما سمعت الله عز وجل يقول:﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ .

واعلم أن الواثق بالله نفى عن قلبه التهمة لله، وإن كنت في ظل سبب فلا يميلن قلبك إلى السبب، وليكن قلبك مع الله عز وجل .

واعلم أن القهرمان لا ينفق إلا بإذن السيد، فاعقد قلبك لسيدك، لأنه إن أعطاك لم يقدر أهل الأرض أن يمنعوك، وإن منعك لم يقدر أهل الأرض أن يعطوك، لأن سلطانه عظيم، وبتوكلك عليه يكفيك .

فالمتوكل ساكن القلب إلى المضمون، فمن قطع القلب بالأسباب، لم ير شيئًا إلا الله، لأن قدر الله جارٍ على المتوكل وغيره، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

وقد علم المتوكل علمًا يقينًا، وسكن قلبه إلى ذلك: أن ما قسم له وقدر، أو كان في مهب الريح لأدركه، وأن ما لم يقسم له ولم يقدر، لو كان بين يديه وجهد أهل السماوات والأرض أن يوصلوا إليه مثل ذرة أو خردلة لم يقدروا على ذلك. وقد قال:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. وقال:﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فلم يحق لهم إيمانًا إلا بتوكلهم عليه .

وقال : ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، وقال : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ .

فالتوكل محض الإيمان، لأنه فريضة على العباد، ولا يكون الإيمان إلا بتوكل، والتوكل يزيد وينقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص، والناس يتفاضلون في التوكل والإيمان على قدر اليقين .